«حماقة الهجوم على إيران»

أتباع الشاه

انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط



ستيفن كينزر

أتباع الشاه

أتباع الشاه

انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط

تأليف
ستيفن كينزر

ترجمة
سهى الشامي



All the Shah's Men

Stephen Kinzer

أتباع الشاه

ستيفن كينزر

الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ-٢٠١١م
رقم إيداع ١٩٠٢٤/ ٢٠١٠
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر
(شركة ذات مسئولية محدودة)

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه
مكتب رقم ٤، عقار رقم ٢١٩٠، زهراء مدينة نصر، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢+ **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢+
البريد الإليكتروني: kalimatarabia@kalimatarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalimatarabia.com

كينزر، ستيفن.
أتباع الشاه: انقلاب أمريكي وجذور الإرهاب في الشرق الأوسط / ستيفن كينزر؛ . – القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١١.
٣٣٦ص، ١٤٫٥×٢١٫٠سم
تدمك: ٣ ٦٧ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
في رأس العنوان مقدمة طبعة ٢٠٠٨ حماقة الهجوم على إيران
١- إيران – تاريخ – العصر الحديث – رضا شاه بهلوي
أ- العنوان
٩٥٥٫٠٥٢

المحتويات

مقدمة طبعة ٢٠٠٨ ٩
مقدمة ٢٧
شكر وتقدير ٣١
ملاحظات ٣٣
١- مساء الخير يا سيد روزفلت ٣٥
٢- ملعون ذلك المصير ٥٣
٣- آخر قطرة من دماء الأمة ٦٩
٤- موجة من النفط ٨٩
٥- أوامر سيده ١٠٧
٦- أعداء غير مرئيين في كل مكان ١٣٣
٧- إنك لا تعلم كم هم أشرار ١٥٥
٨- عجوز داهية ١٧٥
٩- البريطانيون الحمقى ١٩٣
١٠- شمر عن ذراعيك وابدأ العمل ٢١١
١١- كنت أعلم ذلك! إنهم يحبونني! ٢٣١
١٢- جون داليس راضٍ تمامًا ٢٦١
خاتمة ٢٨٩
ملاحظات ٣٠٣
المراجع ٣٢٧


من أجل الشعب الإيراني

«لا جديد في هذا العالم إلا ما تجهله من التاريخ.»
هاري ترومان

مقدمة طبعة ٢٠٠٨

حماقة الهجوم على إيران

مضى أكثر من نصف قرن منذ أن أطاحت الولايات المتحدة بالحكومة الديمقراطية الوحيدة في تاريخ إيران. ويصف هذا الكتاب تلك العملية المصيرية ويستعرض نتائجها المأساوية، وهو يقص علينا قصة يجب أن نستخلص منها العبر؛ فعام ١٩٥٣ كانت فكرة التدخل في إيران تبدو فكرة حسنة، ولبرهة من الزمن بدا أن تلك الفكرة نجحت، لكن من الجلي الآن أن ذلك التدخل لم يؤدِّ إلى مرور إيران بعقود مأساوية فحسب، بل إنه أيضًا حرك قوى شكلت تهديدًا خطيرًا للأمن القومي الأمريكي.

يدعو العسكريون في واشنطن إلى شن هجمة أمريكية أخرى على إيران، هنا تصبح قصة الهجوم الأول وثيقة الصلة بواقعنا أكثر من ذي قبل، فهي توضح حماقة اللجوء للعنف من أجل محاولة إعادة تشكيل إيران. عام ١٩٥٣ سعت الولايات المتحدة إلى تعزيز مصلحتها الاستراتيجية عن طريق شن هجوم على النظام الإيراني الذي كانت ترفضه، لكن النتائج أتت بعكس ما توقع القادة الأمريكيون تمامًا.

لو لم ترسل الولايات المتحدة عملاءها لخلع رئيس الوزراء الإيراني محمد مصدق عام ١٩٥٣، لاستمرت إيران في طريقها نحو تحقيق الديمقراطية الكاملة، ولأصبحت خلال العقود التالية أول دولة ديمقراطية في الشرق

الأوسط الإسلامي، وربما أصبحت نموذجًا تحتذي به الدول الأخرى في المنطقة وخارجها، كان ذلك سيغير مجرى التاريخ تمامًا ... ليس تاريخ إيران أو الشرق الأوسط فحسب، بل تاريخ الولايات المتحدة والعالم بأسره أيضًا.

ومن منظور اليوم ... من منظور من شهدوا أحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول وحرب العراق وكل الأخطار المصاحبة لها التي زعزعت استقرار العالم الحديث، فإن التدخل الذي حدث عام ١٩٥٣ في إيران يمكن اعتباره نقطة تحول فاصلة في تاريخ القرن العشرين، فبإعادة محمد رضا شاه إلى عرش الطاووس،[١] تسببت الولايات المتحدة في إيقاف تقدم إيران نحو الديمقراطية. وقد حكم الشاه بنظام القمع المتزايد طوال خمسة وعشرين عامًا، وأدت سياسة القمع تلك إلى الانفجار الذي حدث أواخر السبعينيات، والذي عرف فيما بعد بالثورة الإسلامية، وقد أتت تلك الثورة إلى السلطة بمجموعة من رجال الدين المتطرفين في معاداتهم للغرب الذين عملوا بجهد بالغ من أجل تقويض المصالح الأمريكية في كل أنحاء العالم.

عام ١٩٥٣ خلعت الولايات المتحدة رئيس الوزراء الإيراني الذي كان يؤمن بالقومية ويعتنق المبادئ الأمريكية الأساسية، واستبدلت به طاغية يحتقر كل ما تمثله الولايات المتحدة. واليوم يجد الغرب نفسه في مواجهة نظام في طهران يجسد مخاوف أشد عمقًا من تلك التي سعى إلى القضاء عليها عام ١٩٥٣، ويبدو أن دافع البيت الأبيض للهجوم على إيران لا يزال بنفس القوة التي كان عليها آنذاك. وبوسعنا أن نتخيل الحجج التي يحاول مستشارو الرئيس بوش إقناعه من خلالها؛ لقد تعرضنا لأحداث الحادي عشر من سبتمبر/أيلول لأن الرئيس كلينتون لم يتمتع بالشجاعة الكافية لوأد الخطر في مهده، لذا فلنتحلّ بالشجاعة، ولنتعامل مع الخطر قبل أن يستشري، بدلًا من ترك الأمر للرئيس القادم كي يتعامل معه.

لمَ الهجوم على إيران؟ يسوق مؤيدو الفكرة أسبابًا عديدة: يجب عدم السماح لإيران بأن تصبح قوة نووية، إيران تمثل خطرًا على وجود إسرائيل،

[١] هو أصلًا عرش مغول الهند. وبعد استيلاء نادر شاه — أحد ملوك الفرس — عليه وأخذه إلى إيران أصبح تعبير «عرش الطاووس» يشير إلى عروش الأباطرة الفرس حتى آخرهم محمد رضا بهلوي. (المترجمة)

إيران هي قلب «الهلال الشيعي» الذي يهدد استقرار الشرق الأوسط، إيران تدعم الجماعات المتطرفة في الدول المجاورة، إيران تشارك في قتل الجنود الأمريكيين في العراق، إيران تشن هجمات إرهابية في دول أجنبية، الشعب الإيراني يعاني القهر ويحتاج إلى الأمريكيين كي يمنحوه الحرية، ... إلى آخر تلك الذرائع.

وهناك أيضًا ذريعة جيوسياسية للهجوم على إيران، فمنذ بدء عصر الحرب الباردة دأبت الولايات المتحدة على استغلال واحدة من دول الشرق الأوسط كقاعدة لبسط سيطرتها على المنطقة، وطوال ربع قرن كانت تلك الدولة هي إيران تحت حكم الشاه، والآن هي المملكة العربية السعودية، ولكن احتمالات الاستقرار على المدى الطويل هناك غير مؤكدة. وقد تبدد الأمل في أن تصبح العراق بعد الغزو الأمريكي لها الحليف الأساسي للولايات المتحدة في المنطقة، لكن البعض في واشنطن يروجون وهمًا جديدًا، وهو أنه بعد انقشاع غبار الهجوم الأمريكي على إيران سوف يستقر الوضع هناك وتصبح إيران حليفًا للولايات المتحدة.

إن من أبرز أسباب الهجوم على إيران الرغبة في وضع اليد على مواردها النفطية الهائلة، فعندما شارك وينستون تشرشل في الاستيلاء على صناعة البترول في إيران في العشرينيات من القرن الماضي، أطلق عليها «غنيمة من أرض الأحلام تفوق كل ما حلمنا به»، ولا تزال كذلك. وبصرف النظر عما قد يقوله صناع السياسات في واشنطن أو في أي مكان آخر، فلا توجد دولة تتعامل مع إيران دون أن تفكر في مواردها النفطية، وينطبق ذلك الأمر خاصة على إدارة بوش التي ترتبط بصناعة النفط أكثر من أي إدارة أخرى في التاريخ الأمريكي.

وقد يكون للرئيس بوش والمحيطين به أسباب أخرى تغريهم بغزو إيران، إذ يعتقد البعض أن السبيل لتحقيق النصر في العراق يكمن في القضاء على النظام في إيران، على الرغم من أن الأدلة تشير إلى عكس ذلك. وقد أعلن بوش مرات عديدة أنه يتوقع أن ينصفه التاريخ، وهي حجة يمكن استخدامها لتبرير أكثر القرارات الرئاسية جنونًا، ومن وراء تلك الحجج يكمن دافع آخر أكثر ذيوعًا.

يعتقد القادة الأمريكيون وخاصة الرئيس بوش أنه نظرًا إلى أن الولايات المتحدة قوة عظمى، فإن لها الحق وعليها مسئولية التدخل بقوة كلما حدثت مشكلة في أي بقعة من بقاع الأرض، ويرجع ذلك الدافع على الأقل إلى عهد ثوكيديدس[٢] الذي كتب إن الأمم لديها «دافع فطري لا يقاوم للسيطرة عندما تكون في موقف قوة.» وفي دراسة حديثة عن الحرب الأمريكية الأسبانية التي ترتبط بواقعنا اليوم ارتباطًا وثيقًا، كتب المؤرخ البريطاني جوزيف سميث إن حماس الولايات المتحدة للهجوم على الدول الأخرى ينبع من «نوع من الشعور القومي العدائي وارتباط عاطفي بالقوة الوطنية». ويعتقد البعض في واشنطن أن الغزو وإسقاط الحكومات والاحتلال هو الطريق الطبيعي للأمم العظمى، وإلا فلا داعي لامتلاك القوة على حد زعمهم.

لقد صرح الرئيس بوش قبل بدء غزو العراق قائلًا: «في هذه المرحلة من التاريخ، إذا كانت هناك مشكلة فلا بد أن نحلها.» وطبقًا لمقاييسه الخاصة، فقد أصبحت إيران بالطبع «مشكلة»، مما يعني أنه قد يقرر الهجوم عليها من أجل «حلها».

وقبل أن تتخذ القوى العظمى قرارات مؤثرة يمكنها تغيير شكل العالم، فإن قادتها غالبًا ما يعتبرون بدروس التاريخ. ويجب أن تشمل أي مناقشة جادة حول إيران الحديثة — وهل على الولايات المتحدة التدخل هناك — تقييمًا للنتائج التي ترتبت على التدخل الأخير؛ فعام ١٩٥٣ قامت الولايات المتحدة بعملية كان لها نتائج كارثية عليها وعلى إيران، وذلك بسبب حماسها الشديد لتحقيق أهداف قصيرة المدى، لكن البعض في واشنطن يستنكر فكرة ارتباط التاريخ بالحاضر، ولذلك فهم يعتقدون أنه في هذه المرة يمكن للولايات المتحدة أن تهاجم إيران وتخرج منتصرة.

وصفت شخصيات أمريكية بارزة عديدة قرار الرئيس بوش بغزو العراق عام ٢٠٠٣ بأنه أسوأ خطأ استراتيجي في تاريخ البلاد، وقد يؤدي الهجوم على إيران الآن إلى وقوع كارثة أخطر، فسوف يؤدي إلى تحويل قادة إيران المستبدين الذين لا يتمتعون بشعبية في بلادهم إلى أبطال للمقاومة

[٢] أعظم المؤرخين اليونانيين (٤٦٠ ق.م.–٣٩٥ ق.م.)، اشتهر عالميًّا بكتابه «الحرب بين البيلوبونيزيين والأثينيين». (المترجمة)

الإسلامية، وإعطائهم حافزًا قويًّا لإطلاق حملة معادية عنيفة ضد المصالح الأمريكية في كل أنحاء العالم، وتقوية النزعة القومية الإيرانية والشيعية الاستردادية والتطرف الإسلامي، مما يضيف أسبابًا جديدة لا حصر لها للإرهاب، بالإضافة إلى إضعاف الحركة الديمقراطية في إيران، والقضاء على احتمالات التغيير السياسي بها لعقد كامل على الأقل، واستجلاب عداوة الشعب الإيراني للولايات المتحدة، مع أنه يُعد الآن من أكثر الشعوب المؤيدة لها في الشرق الأوسط، وتوريط الولايات المتحدة في منطقة الخليج العربي إلى أجل غير مسمى، مما يجبرها على أن تتخذ موقفًا في مختلف النزاعات الإقليمية فتضيف المزيد إلى قائمة أعدائها، وإغضاب الحكومة الشيعية في العراق المجاورة التي تعتمد عليها الولايات المتحدة في تهدئة العنف هناك، وعلى الأرجح قطع تدفق النفط من الشرق الأوسط بطريقة قد تدمر اقتصادات الدول الغربية.

ومع وضع تلك النتائج المحتملة في الاعتبار، لماذا تقدم الولايات المتحدة على مهاجمة إيران؟ يقول مؤيدو الفكرة إنها سوف تحقق ثلاثة أهداف: منع إيران من تطوير أسلحة الدمار الشامل، والإطاحة بنظام شديد العداء للولايات المتحدة، وتعيين حكومة جديدة ديمقراطية موالية للولايات المتحدة. وهم يفترضون أن تلك الحكومة سوف تمكن شركات النفط الأمريكية من الحصول على النفط الإيراني مجانًا، وتعطي الولايات المتحدة فرصة لإعادة بناء النفوذ الذي كانت تتمتع به في إيران، لكن تلك التصورات خطرة بقدر ما هي خيالية.

إيران واحدة من أقدم الأمم في العالم، ويحفل تاريخها بالانتصارات والأمجاد، وقد عاش فيها قادة عظماء من أمثال قورش[٣] وخشايار شاه[٤] وداريوس[٥]، بالإضافة إلى شعراء ومفكرين كانت لهم إسهامات لا حصر لها في الثقافة العالمية. وقد أعطى ذلك التراث الخصب الإيرانيين شعورًا قويًّا

[٣] أحد أعظم ملوك الفرس، حكم بين ٥٥٠–٥٢٩ ق.م. (المترجمة)

[٤] ملك فارسي حكم بين ٤٨٥ و٤٦٥ ق.م. (المترجمة)

[٥] هو داريوس الأول أو داريوش الأول أو دارا الأول، الملك الإخميني الثالث إخميني فارسي حكم ٥٢١ –٤٨٦ ق.م. (المترجمة)

بالفخر الجماعي، وارتباطًا عاطفيًّا بتراثهم، وهوية قومية تتعدى مجرد ترديد الشعارات الوطنية التي تميز أشكال الوطنية الأكثر سطحية. ويبغض العديد من الإيرانيين النظام الذي يحكمهم حاليًّا، ولكن ذلك لا يضعف من ارتباطهم بالأمة الإيرانية، فهم يعلمون أنه عندما قامت الولايات المتحدة كان عمر دولتهم يزيد على ألفي عام، وبصرف النظر عن معتقداتهم السياسية، يستشيط معظمهم غضبًا عندما يسمعون تهديدات من واشنطن.

ويبدو أن فكرة القصف الأمريكي لإيران لإجبارها على انتهاج الديمقراطية تزداد سخافة على إثر الهزيمة في العراق، ولكن في رأي الإيرانيين بوجه خاص تنطوي تلك الفكرة على مفارقة محزنة، فهم جميعًا يعلمون ما لا يعلمه كثير من الأمريكيين، وهو أن الديمقراطية كانت تشق طريقها في إيران عندما تدخلت الولايات المتحدة لقمعها عام ١٩٥٣. ونظرًا لهذه الحقيقة التاريخية، فمن حق الإيرانيين اعتبار رغبة الأمريكيين في تحريرهم فكرة شديدة الغرابة، وهم يدركون تمامًا أن الولايات المتحدة ساعدت على إنشاء الدولة الثيوقراطية[٦] الظالمة التي تحكمهم الآن.

ويرى بعض الإيرانيين أن الأمريكيين الذين يؤيدون الهجوم على بلادهم يهدفون إلى جلب الديمقراطية معهم، ويعتقد الكثيرون أيضًا أن الولايات المتحدة تهدف أساسًا إلى القضاء على برنامج إيران النووي، وهو البرنامج الذي طرحته الولايات المتحدة على إيران في السبعينيات من القرن الماضي عندما كان الشاه في السلطة، والذي يراه معظم الإيرانيين حقًّا طبيعيًّا لبلادهم. ووراء تلك الأهداف المعلنة، وخلف تلك التهديدات التي تزيد حدتها كلما دقت طبول الحرب بشدة في واشنطن، ينظر الإيرانيون إلى المشروع نظرة أكثر تشاؤمًا؛ فهم يعتقدون أن الولايات المتحدة ترغب في تحويل إيران إلى كيان يقف بين الحليف والتابع، حيث تستخرج النفط منها وتبني قواعد على أراضيها، وكان ذلك السبب الحقيقي وراء تدخل الولايات المتحدة في إيران عام ١٩٥٣، ولا يوجد ما يدعونا للاعتقاد بأن أهدافها قد تغيرت تغيُّرًا جوهريًّا.

---

[٦] نظام حكم يستمد الحاكم فيه سلطته مباشرة من الإله، حيث تكون الطبقة الحاكمة من الكهنة أو رجال الدين الذين يعتبرون موجهين من الإله أو يمتثلون تعاليم سماوية. (المترجمة)

ظل الهجوم اللفظي على إيران مادة أساسية في خطب واشنطن منذ تولي الرئيس بوش الحكم عام ٢٠٠١، فمن المعروف أن الرئيس بوش وصف إيران بأنها جزء من «محور الشر» العالمي، وفي الخطاب الذي ألقاه في بدء فترته الرئاسية الثانية أطلق على إيران «الراعي الرسمي للإرهاب في العالم»، وحذر فيما بعد من أن تحول إيران إلى قوة نووية أمر «غير مقبول». وقد وضع نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني إيران «على رأس قائمة» مناطق الصراع في العالم، ووصفت كوندوليزا رايس — وزيرة الخارجية الأمريكية — سجل إيران لحقوق الإنسان بأنه «شيء يثير الاشمئزاز». ويصر جون بولتون سفير الولايات المتحدة السابق لدى الأمم المتحدة على أنه حان الوقت «لزيادة الضغط بشدة» على إيران، وإذا لم تؤدِّ العقوبات والتدابير القسرية الأخرى المتخذة ضد إيران إلى إجبار النظام الإيراني على تغيير مساره، «فعلينا في تلك الحالة أن نفكر في استخدام القوة.» وقد صرح السيناتور جوزيف ليبرمان أحد مؤيدي الرئيس بوش في شئون السياسة الخارجية في حوار تليفزيوني قائلًا: «إذا لم يلتزم الإيرانيون بقواعد اللعبة فسوف نضطر إلى اللجوء للعنف، ويعني ذلك استخدام القوة العسكرية من أجل ردعهم عما يفعلون.»

وقد استخدم ليبرمان حجة جديدة لتبرير دعوته للهجوم على إيران، فقد اتهم إيران بمساعدة المتمردين في العراق، مما تسبب في مصرع نحو مائتي جندي أمريكي، وتلك حجة عجيبة، لأنه أثناء حرب فييتنام زود الاتحاد السوفييتي شمال فييتنام بأسلحة وذخيرة تسببت في مقتل عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين، وفعلت الصين نفس الشيء مع حلفائها في كوريا الشمالية في الخمسينيات من القرن الماضي، ولكن الولايات المتحدة لم تهاجم موردي الأسلحة آنذاك، ولا حاولت حكومة ساندينو[٧] في نيكاراجوا مهاجمة الولايات المتحدة خلال الثمانينيات من القرن الماضي عندما كانت الأسلحة الأمريكية والمقاتلون الأمريكيون يتسببون في مصرع الجنود والمدنيين في

[٧] الجبهة الساندينية للتحرير الوطني هو حزب سياسي نيكاراجواني أمسك بزمام السلطة في نيكاراجوا من عام ١٩٧٩ حتى ١٩٩٠. وسمي الحزب بهذا الاسم تيمنًا بأوجستو سيزار ساندينو (١٨٩٥–١٩٣٤)، أحد أبطال المقاومة النيكاراجوانية ضد الاحتلال الأمريكي. (المترجمة)

نيكاراجوا؛ إن تقديم المساعدة للأصدقاء أثناء الحروب وسيلة قديمة قدم الحرب بالإنابة. والآن مع تلهف إدارة بوش للعثور على كبش فداء لإخفاقها في العراق، يحث ليبرمان الولايات المتحدة على «اتخاذ إجراء عسكري عنيف ضد الإيرانيين لمنعهم من قتل الأمريكيين في العراق.»

قد تكون لغة التهديد تلك مفزعة للدول الصغيرة الفقيرة المنعزلة غير الآمنة، ولكن عندما يوجه مثل هذا التهديد إلى أمة تفخر بنفسها مثل إيران فإنه يؤدي إلى تأثير عكسي، حيث يزيد من حدة المقاومة، ويوحد الناس الذين لا يحبون أن يتلقوا الأوامر ممن يعدونهم «بلطجية»، مثلهم في ذلك مثل بقية شعوب العالم.

ويبدو أن بريطانيا التي ظلت عدو إيران فترة أطول من الولايات المتحدة قد تعلمت هذا الدرس، فعام ١٩٥٣ تعاونت المخابرات السرية البريطانية مع المخابرات المركزية الأمريكية من أجل خلع رئيس الوزراء مصدق، وعلى مدار القرن العشرين زادت حمى معاداة بريطانيا في إيران أكثر من معاداة الولايات المتحدة، ولكن عندما ألقت دورية إيرانية القبض على تسعة عشر بحارًا وجنديًّا بحريًّا بريطانيًّا زعمت أنهم دخلوا المياه الإيرانية بطريقة غير قانونية في ربيع عام ٢٠٠٧، اختلف رد فعل القادة البريطانيين على ذلك الأمر تمامًا عن رد فعل القادة الأمريكيين لو كان الجنود المشار إليهم ينتمون للجيش الأمريكي؛ فقد أكد رئيس الوزراء توني بلير مرارًا أنه لن يلجأ إلا للأساليب الدبلوماسية لتحرير الأسرى، واستبعد تمامًا اللجوء للقوة، وقد أثر ذلك الموقف بشدة في الحكومة الإيرانية، فأطلقت سراح الأسرى بسرعة، وهكذا انتهت واقعة ربما نجمت عنها أزمة طويلة المدى تزعزع استقرار المنطقة من خلال التفاوض دون أن يفقد أي من الطرفين ماء وجهه.

لا ينتهز القادة الأمريكيون أي فرصة كي يكشروا عن أنيابهم في وجه إيران فحسب، بل إنهم أيضًا بدءوا سلسلة من العمليات من شأنها زعزعة استقرار النظام الإسلامي، وكان يمكن أن تعد تلك العمليات سرية لو لم يكن النظام في طهران على علم بها. وكان جزء من المشروع الأمريكي يتمثل في إرسال عشرات الملايين من الدولارات خصصها الكونجرس علنًا لجماعات

يراها مؤيدة للديمقراطية في إيران. وهكذا فمن الطبيعي أن يعتبر الملالي[٨] الحاكمون كل منظمة خاصة في إيران أداة محتملة للعدوان أو التدمير الأمريكي، فأطلقوا حملات قاسية لفرض النظام تسببت في إرسال المئات من الإيرانيين المثاليين إلى العالم السفلي المتمثل في سجن إيفين بطهران، حيث ينتشر تعذيب السجناء ومنعهم من ممارسة حقوقهم القانونية بنسبة مساوية تقريبًا للسجن الأمريكي في جوانتانامو. ويقول المعارضون الإيرانيون إنه عند القبض عليهم لا يكاد المحققون يهتمون إلا بسؤالهم عن مصادر أموالهم، هل يأتي أيٌّ منها من مصدر أمريكي. وبتخصيص الولايات المتحدة الأموال علانية لبرنامج يهدف صراحة إلى زعزعة استقرار النظام الإيراني، ساعدت على بدء حملة قاسية لقمع المعارضة وتقليل مساحة التقدم الديمقراطي في إيران وإعاقة الحرية التي تزعم التمسك بها.

وإلى جانب تلك المحاولة الخرقاء لإعادة تشكيل المشهد السياسي في إيران، تتدخل الولايات المتحدة أيضًا بطرق أكثر مباشرةً، فقد أرسلت بعض حاملات الطائرات إلى الخليج العربي وقاذفات القنابل الثقيلة إلى قطر. وبالإضافة إلى ذلك، فطبقًا للتقارير الصحفية بدأت الولايات المتحدة سرًّا في تمويل العصابات المسلحة من الأكراد والبلوش[٩] والأذربيجانيين[١٠] وبعض الأقليات العرقية في إيران التي اشتهرت باغتيال المسئولين الإيرانيين ومقاتلي الحرس الثوري، وتهدف أشكال الضغط تلك إلى إخافة النظام في إيران أو إفقاده أعصابه، ولكنها عوضًا من ذلك تقود النظام إلى قمع المعارضة المحلية بمزيد من الشراسة.

ويبدو أن النظرية الكامنة خلف سياسة الولايات المتحدة تجاه إيران هي ضعف النظام الإيراني أمام الأشكال التقليدية للضغوط، ولكن في

---

[٨] جمع ملا وهو فقيه مسلم عند بعض الطوائف الإسلامية، ويشيع استخدامه في مناطق من قبيل إيران وتركيا وباكستان وأفغانستان وشبه القارة الهندية وآسيا الوسطى والبوسنة، ويطلق على رجل دين محلي أو إمام مسجد. (المترجمة)

[٩] أحد الأعراق التي توجد في باكستان وإيران وسلطنة عمان والإمارات العربية المتحدة وغيرها من دول الخليج منذ وقت طويل، ويتميزون بلغتهم الخاصة التي تعد مزيجًا من عدة لغات منها العربية والهندية والفارسية على سبيل المثال لا الحصر، ويتميزون بعادات وتقاليد خاصة، إلا أنهم اندمجوا في المجتمعات التي هاجروا إليها ومنها المجتمعات الخليجية والعمانية على الخصوص. (المترجمة)

[١٠] مجموعة عرقية تعيش بوجه عام في شمال غرب إيران وفي جمهورية أذربيجان وأيضًا في المنطقة بين القوقاز وهضبة إيران. والأذربيجانيون لديهم ميراث ثقافي ذو خصوصيات إيرانية وتركية وقوقازية. (المترجمة)

حقيقة الأمر فإن ذلك النظام أصبح أقوى مما كان عليه؛ فقد أدى انهيار الاتحاد السوفييتي الذي خفف الضغط على حدود إيران الشمالية وتسبب في ظهور دول جديدة عديدة ذات أقليات مسلمة إلى إتاحة فرص استراتيجية كثيرة أمام إيران، حيث أدى ارتفاع أسعار النفط إلى منحها قوة اقتصادية جديدة في الأعوام الأولى من القرن الحادي والعشرين، وعلى نحو فجائي قدمت الولايات المتحدة — التي تعلن في كل مناسبة عن قيادتها لتحالف عالمي ضد إيران — خدمة كبيرة لإيران تتمثل في القضاء على النظامين اللذين تخشاهما إيران بشدة، وهما حكومة طالبان في أفغانستان التي كانت خاضعة لمتطرفين سنيين متعصبين ضد الإيرانيين، وحكومة صدام حسين في العراق التي خاضت معها إيران حربًا مدمرة في الثمانينيات من القرن الماضي.

وقد أخذ التأثير الإيراني في الشرق الأوسط يزداد على نحو منتظم منذ الغزو الأمريكي للعراق، فالحكومة العراقية الجديدة شيعية تكن الإعجاب لإيران وتتعاون معها، ويطلق الرئيس الأفغاني حامد قرضاي على إيران «صديقتنا العزيزة». وفي لبنان حقق النظام الإيراني نصرًا كبيرًا من وجهة نظر العديد من المسلمين عام ٢٠٠٦ عندما قاومت ميليشيات حزب الله الذي تدعمه إيران عدوانًا إسرائيليًّا مدمرًا، ثم تولت جهود إعادة البناء بعد الحرب.

وبوقوع العراق في حالة فوضى، وانشغال كل من سوريا ومصر بالتحديات الداخلية، أصبحت إيران القوة الإسلامية الوحيدة في الشرق الأوسط القادرة على التأثير في الأحداث خارج حدودها؛ فقد زاد نفوذ إيران في العراق ولبنان وسوريا، وزاد تأثيرها على الفلسطينيين، بالإضافة إلى عناصر أخرى غير حكومية مثل جماعات حزب الله وحماس والجهاد الإسلامي. ولم تكن إيران قط بالقوة التي هي عليها الآن في التاريخ الحديث، والعجيب أن معظم الفضل في ذلك يرجع إلى الولايات المتحدة، فطفرة القوة والنفوذ التي تتمتع بها لم تأت نتاج جهدها الخاص، بل يستغل قادتها الأخطاء الأمريكية لمصلحتهم.

أوقفت الولايات المتحدة تقدم إيران نحو الحرية بعنف شديد عندما خلعت رئيس الوزراء مصدق عام ١٩٥٣، والنتائج بعيدة المدى المترتبة على

ذلك جاءت مدمرة لكلا الدولتين. وبعد مضي نصف قرن أعطت مجموعة أخرى من القادة الأمريكيين أوامرها بغزو العراق، وهو الحدث الذي أحدث تأثيرًا كارثيًّا مشابهًا. وعلى الرغم من تلك الهزائم فلا يزال البعض في واشنطن يعتقدون أن القوة العسكرية يمكن أن تؤدي إلى تغيرات إيجابية في إيران، وأكثر من يخشى ذلك الأمر هم الديمقراطيون الإيرانيون الشجعان الذين يقومون بحملات للإصلاح في بلادهم رغم خطورة ذلك عليهم.

وفي حوار أجري عام ٢٠٠٧ مع المتمرد الإيراني أكبر جانجي — الذي قضى ست سنوات شاقة في السجن بسبب تأليف كتاب يتهم فيه المسئولين الإيرانيين بتنظيم اغتيالات سياسية — قال: «إن الدولة الإيرانية متهمة بالطبع بانتهاك حقوق أساسية عديدة لمواطنيها، ولكن الهجوم العسكري ليس حلًّا عادلًا أو فعالًا لتلك المشكلة ... فسوف يكون الهجوم كارثة على شعب إيران البريء وعلى المنطقة بأسرها، وسوف يعزز أيضًا من نمو الأصولية في المنطقة، ويعيد إحياء الاعتقاد بأن الغرب اليهودي المسيحي بقيادة الولايات المتحدة يهاجم العالم الإسلامي، من أفغانستان وفلسطين إلى العراق وإيران ... لقد ساهمت التهديدات العسكرية الأمريكية الحالية في إعطاء الحكومة الإيرانية حرية قمع المجتمع المدني الناشئ في إيران باسم الأمن القومي، وغطت على الخطاب الديمقراطي حتى إن بعض الإصلاحيين الإيرانيين يرون أنفسهم بين شقي الرحى: الاستبداد المحلي والغزو الأجنبي. إن التغيير السياسي في إيران ضرورة، ولكن لا يمكن تحقيقه عن طريق التدخل الأجنبي.»

وفي الحوار نفسه أثار جانجي نقطة في غاية الأهمية، إذ قال إن الولايات المتحدة لا تتمتع بالمصداقية لدى إيران كدولة تحمل لواء الديمقراطية، وذلك بسبب دورها في القضاء على الديمقراطية هناك منذ نصف قرن، وأيضًا بسبب إخفاقها منذ ذلك الحين في إبداء أي اهتمام بتنمية المجتمع المدني في إيران.

وأضاف جانجي قائلًا: «أعتقد أن معظم الإيرانيين يشتركون في وجهة نظر عامة بشأن السياسة الخارجية الأمريكية، فهم يرون أن أهمية إيران تنبع من موارد الطاقة الهائلة التي تمتلكها ودورها في السياسة الإقليمية

فحسب، وأن الثقافة والتنمية الاقتصادية الإيرانية وتحقيق السلام والرفاهية وتوفير الحقوق الأساسية للمواطن الإيراني أمور لا تعني صناع السياسات الأمريكية في شيء ... فلن ينسى الإيرانيون أبدًا الانقلاب الذي دعمته الولايات المتحدة عام ١٩٥٣ والذي أطاح بالحكومة القومية المعتدلة الديمقراطية التي كان يرأسها د. محمد مصدق، وأتى بنظام سياسي دكتاتوري منغلق، وهكذا فقد المجتمع الإيراني إحدى أهم الفرص التاريخية لتحقيق الديمقراطية.»

ولا تزال الولايات المتحدة تدفع الثمن غاليًا لقاء تدخلها العنيف في إيران منذ عقود مضت، وإذا هاجمت إيران مرة أخرى الآن فسوف يلعنها الإيرانيون لمدة نصف قرن آخر. ويدرك الأمريكيون العقلاء تلك الحقيقة، حيث حذر الأستاذ إيه ريتشارد نورتون بجامعة بوسطن، وهو خبير في الحركات السياسية الإسلامية عمل من قبل مستشارًا لمجموعة دراسة العراق ثنائية الأحزاب، قائلًا: «ستؤدي الهجمة الأمريكية إلى إسكات الأصوات العاقلة في إيران، وتمنحها الدافع لكي تجعل الحياة أكثر صعوبة للولايات المتحدة في العراق وأماكن أخرى، ومن المحتمل أيضًا أن تعوق تجارة النفط الدولية.» ووصف ميلت بيردن — ضابط المخابرات المركزية الأمريكية المحنك الذي أدار الحرب الأمريكية في أفغانستان في الثمانينيات — تلك الفكرة بأنها «مجنونة»، وأكد قائلًا: «إن الدخول في حرب مع إيران لن يفيد أحدًا عدا إيران.» بل إن روبرت جيتس قبل أن يصبح وزيرًا للدفاع كان عضوًا في فريق يدرس الخيارات المتاحة للولايات المتحدة تجاه إيران، وقد أوصى باتباع «توجه استراتيجي معدل» يعتمد على المعاملة والحوار.

ويجب أن يكون أول مظاهر ذلك التوجه المعدل التزام الولايات المتحدة بالحوار المباشر غير المشروط مع الحكومة الإيرانية. ونظرًا لاستعداد الولايات المتحدة للتفاوض مع كافة النظم البغيضة، فإن رفضها التفاوض مع إيران لا يدعو للحيرة فحسب، بل يؤدي أيضًا لنتيجة عكسية؛ فهذا الرفض قائم في الظاهر على المبدأ الغريب الذي ينهى عن التفاوض مع الأعداء. وقد أعلن مسئولون في إدارة بوش أنهم يرفضون المباحثات الموسعة مع إيران لأنهم لا يرغبون في مكافأة «السلوك السيئ»، ولكن الدول الأعداء التي ترتكب «السلوك السيئ» هي ذاتها التي يجب أن ترغب كل الدول في التعامل معها

بصورة عاجلة، وخاصة عندما تتمتع تلك الدول بنفوذ كبير وتمثل تهديدًا متزايدًا للأمن العالمي على غرار وضع إيران اليوم، فلا يمكن أن تكون الغطرسة والشجب والتهديد ووضع مطالب حادة اللهجة أسسًا لسياسة خارجية سليمة.

ولكن هناك سببًا آخر خفيًّا جعل الولايات المتحدة عاجزة عن التفاوض مع إيران طوال الخمسة وعشرين عامًا الأخيرة، حيث إن الطبقة السياسية الأمريكية لم تتعاف قط من صدمة خسارة الشاه وذل أزمة الرهائن التي أعقبتها، وهي تحمِّل النظام الإسلامي الحالي مسئولية تلك الإهانات، ويبدو إصرار البعض في واشنطن على الأخذ بالثأر القديم من إيران أكبر من حرصهم على بناء علاقات جديدة مع حكومتها وشعبها، وإلى أن تتمكن الولايات المتحدة من تخطي ذلك الحاجز النفسي والتخلي عن عنادها الشديد ورفضها القاطع لإجراء محادثات جدية مع إيران، فلن يكون هناك أي تحسن حقيقي في العلاقات بين البلدين.

إن الأزمة العنيفة بشأن برنامج إيران النووي تجعل التفاوض الآن حاجة ملحة أكثر من ذي قبل، وكي تحظى تلك المفاوضات بفرصة للنجاح، يجب أن تكون مباشرة وثنائية، حيث إن الولايات المتحدة وحدها تمتلك سلطة إعطاء إيران الضمانات الأمنية التي تطلبها في أي اتفاق مستقبلي. ويجب أيضًا أن تكون تلك المفاوضات غير مشروطة، بحيث يشجِّع كلا الطرفين على إثارة نقاط الخلاف. وقد تكون اللقاءات بين الدبلوماسيين الأمريكيين والإيرانيين لبحث طرق جلب الاستقرار إلى العراق — وهي الأولى من نوعها منذ قيام الثورة الإسلامية — وسيلة للتقدم نحو إجراء مباحثات موسعة، وقد وصف كلا الجانبين تلك الاجتماعات بأنها «إيجابية»، ولكنها كي تكون إيجابية حقًّا يجب أن تؤدي إلى مفاوضات شاملة.

ومن الأمثلة النموذجية لتلك المفاوضات السياسة التي انتهجتها كل من الولايات المتحدة والصين عندما أعادا إحياء علاقتهما في السبعينيات من القرن الماضي، وكانت أول وثيقة صادرة عن تلك العملية بيان شنغهاي الذي كان يبدو بسيطًا على غير حقيقته، فلم يقدم أي من طرفيه أي تنازل أو تعهد بأي التزام، ولكن البيان كان قائمة بمخاوف كل طرف وتعهدًا

بالتفاوض الجاد من أجل حلها فقط. وتعتبر مثل تلك الوثيقة بداية طيبة لعلاقة جديدة بين الولايات المتحدة وإيران.

ما المخاوف التي تحملها كل من الدولتين إحداهما تجاه الأخرى؟ بالطبع سوف تضع الولايات المتحدة برنامج إيران النووي في رأس القائمة، يليه الدعم الإيراني للإرهاب الدولي. وسوف ترغب إيران في مناقشة التصرفات الأمريكية التي تهدف إلى تقويض نظامها، حيث يعتقد كل طرف أن الآخر مسئول عن ارتكاب العنف في الشرق الأوسط.

ولكن وراء نقاط الاختلاف الواضحة تكمن نقاط اتفاق كثيرة بين الولايات المتحدة وإيران، فهاتان الدولتان لم يكتب عليهما مناصبة العداء قط، وهما في الواقع يشتركان في أهداف استراتيجية عديدة، بل من الممكن أن يصبحا حليفين في يوم ما؛ فكلاهما يرغبان بشدة في جلب الاستقرار للعراق وأفغانستان، وكلاهما يبغض الحركات السنية المتطرفة مثل القاعدة وطالبان، وكلاهما يسعى إلى توفير احتياطي ثابت من البترول للأسواق الغربية، وإن كان كل منهما لديه أسبابه، وحاليًّا تعتبر صناعة النفط في إيران معرضة للخطر، وهي تحتاج إلى استثمار عشرات المليارات من الدولارات فيها، في حين الولايات المتحدة تمتلك رأس مال ضخم وشهية مفتوحة للنفط.

لا يزال أمام الأمريكيين الكثير كي يستفيدوه من إقامة علاقة جديدة مع إيران، خاصة إذا أمكنها أن تؤدي إلى تهدئة مشاعر الغضب التي تعصف بالشرق الأوسط، وإيران أيضًا سوف تستفيد؛ فقد أصبح الانقسام بين الشعب والنظام الإيراني مثل الهوة بين الأغنياء والفقراء في إيران تمامًا، أكبر مما كان عليه خلال العقود الأخيرة، والتضخم لا يرحم، ونسبة البطالة شديدة الارتفاع خاصة بين الشباب، والأمراض الاجتماعية مثل إدمان المخدرات والبغاء انتشرت كالوباء، ولا يعتمد القطاع الاقتصادي على شيء سوى النفط، ويرجع ذلك بصورة كبيرة إلى السيطرة الحكومية الخانقة وقلة الاستثمارات الأجنبية. وتلك الدورات اللانهائية من الاتهامات المتبادلة بين واشنطن وطهران تمنع كلا الجانبين من اتباع منهج جديد يمكن أن يستفيد منه كلاهما.

ومن غير المؤكد أن المفاوضات الشاملة بين الولايات المتحدة وإيران سوف تنجح في النهاية، ولكن عدم القيام بمحاولة في ذلك الشأن يعتبر خطأً تاريخيًّا فادحًا. وقد يؤدي تقديم عرض للمحادثات الشاملة إلى حدوث أزمة صغيرة في النظام الإيراني، حيث يجادل المتشددون النفعيين حول ما إذا كانوا يقبلون العرض أم لا.

وفور بدء المحادثات لا يوجد طريقة لإنجاحها سوى التسوية، وهي الطريقة التي لا يزال الطرفان يرفضانها حتى الآن مع أنها الهدف من التفاوض. ولا يعتبر بدء محادثات شاملة مع إيران مكافأة «للسلوك السيئ»، ولكنه بحث عن حلول يمكنها التخفيف من حدة الصراع المتقلب والمساهمة في الأمن العالمي.

وتعتبر الطريقة الوحيدة التي يمكن لإيران بها كبح جماح طموحاتها النووية هي إجراء «صفقة كبرى» تعالج فيها مخاوفها الأمنية، وسوف يتطلب ذلك حلًّا يتعدى حدود إيران ويؤدي إلى إنشاء بناء أمني جديد في الشرق الأوسط؛ فمن غير المعقول أن نتوقع تخلي إيران عن برنامجها النووي ما دام عدوها الإقليمي اللدود — إسرائيل — وعدوها العالمي — الولايات المتحدة — يمتلكان أسلحة نووية ويصدران مجموعة من التهديدات شبه الصريحة لإيران.

ومن الاتفاقات التي قد يضعها المتفاوضون نصب أعينهم الاتفاق الذي وقع عام ٢٠٠٧ بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية؛ ففي مقابل وعد كوريا الشمالية بالتخلي نهائيًّا عن برنامج الأسلحة النووية الخاص بها، وافقت الولايات المتحدة على «محاولة إنشاء علاقات دبلوماسية كاملة» مع كوريا الشمالية، وتخفيف العقوبات الاقتصادية عليها، و«اتخاذ خطوات عملية» لإزالتها من قائمة الدول التي تدعم الإرهاب ومن قائمة الدول التي يقيد المعاملات التجارية معها قانون التجارة مع العدو، وإنشاء مجموعات عمل للتفاوض بشأن نزع السلاح النووي من المنطقة، وإيجاد «آلية جديدة للسلام والأمن في شمال شرق آسيا». وإذا كانت تلك المبادئ قد نجحت في صياغة اتفاق بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية، فبالتالي يمكنها أن تنطبق على إيران التي تزيد قدرتها عن كوريا الشمالية على تعزيز الأمن العالمي أو تهديده.

وكي ينجح التوجه الأمريكي الجديد نحو إيران على المدى الطويل، يجب ألا يقتصر على محادثات فقط مع النظام، فكي تنعم إيران — أو أي دولة أخرى — بالاستقرار والديمقراطية يجب أن تكون بها طبقة وسطى قوية. ومن مصلحة الولايات المتحدة أن تعزز كل صور التواصل الاجتماعي والسياسي والاقتصادي مع طوائف المجتمع الإيراني المختلفة، ففي ظل مناخ جديد لن تصبح إقامة المشروعات الأمريكية مع إيران ممنوعة بل مرحبًا بها. وبدلًا من الحد من عدد التأشيرات الممنوحة للإيرانيين سوف تدعو الولايات المتحدة أكبر عدد ممكن من الإيرانيين إليها وتملأ إيران بالأمريكيين، بدءًا من الطلبة والأساتذة إلى الفلاحين وأصحاب المشروعات والكتاب والفنانين.

إن إيران مستعدة كي تنتهز فرصة ذلك النوع من الارتباط، فهي تضم مجتمعًا مدنيًّا مزدهرًا يتعطش إلى الاتصال بالعالم الخارجي ووعيًا ديمقراطيًّا يرجع إلى أكثر من قرن مضى. وكما أوضحت الإخفاقات في العراق، لا يمكن فرض الديمقراطية على دولة من الخارج؛ فالديمقراطية لا تتمثل في إجراء انتخابات، لكنها منهج حياة وطريقة لحل المشكلات، وفي أي مجتمع ينمو الوعي بالقيم الديمقراطية ببطء. وعلى النقيض من الدول الأخرى في المنطقة ظلت إيران تتقدم نحو الديمقراطية منذ إقرار دستورها الأول منذ أكثر من قرن مضى، ولم يكن الدستور الإيراني يُحترم على الدوام ولا كانت الانتخابات الإيرانية دائمًا نزيهة، ولكن طوال تلك الفترة أظهر الشعب الإيراني وعيًا عميقًا بمعنى الديمقراطية ولا يزال هناك العديد من المتعطشين لها. وهناك أيضًا أرض خصبة للتغيير الديمقراطي في إيران أكثر من أي دولة إسلامية أخرى. ومن اللافت للنظر أن العديد من المواطنين الإيرانيين يحملون بقايا إعجاب للولايات المتحدة، ويجب أن يستغل القادة الأمريكيون تلك النقطة لمصلحتهم.

إن فكرة الهجوم على إيران ومحاولة كسر عنق النظام بها تنطوي على افتراض في منتهى الخطورة، وهو أن ذلك الهجوم سوف يليه تحسن في الأوضاع، وقد مر الإيرانيون بتجربة مريرة تنفي صحة ذلك الاعتقاد؛ ففي أواخر السبعينيات من القرن الماضي، توحد الشيوعيون والأصوليون وأنصار مصدق الليبراليون من أجل الإطاحة بالشاه، وذلك لأنهم افترضوا

أن أي نظام يأتي بعد ذلك سوف يكون أفضل، ولكن يعتقد الكثيرون الآن أن ذلك كان خطأً فادحًا.

ويحاول البعض في واشنطن أن يبرهن أن أي نظام جديد في إيران سوف يكون أفضل من نظام الملا القمعي الذي يتميز بكراهية الأجانب، ولكنهم مخطئون بشدة؛ فمن المتوقع أن يؤدي شن هجوم على إيران الآن إلى حالة من الفوضى في البلاد تشبه تلك التي أصابت العراق، وفي مثل تلك البيئة الفوضوية لن يكون هناك سلطة مركزية تسيطر على المتطرفين مرتكبي أحداث العنف. وأكثر ما يدعو للخوف أن يتضمن هؤلاء المتطرفون علماء نوويين غاضبين، فسوف يزيد احتمال استخدام الإيرانيين خبراتهم التكنولوجية لنقل أسلحة الدمار الشامل إلى الجماعات الإرهابية عند حدوث هجوم، ولن يكون قصف المنشآت النووية في إيران، بافتراض أنها يمكن أن تكتشف وتدمر كلها، سوى حل مؤقت يؤدي قطعًا إلى ظهور تهديدات أكثر خطورة من تلك التي تمثلها إيران الآن، وكما أوضح د. محمد البرادعي مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية، فإن المباني يمكن مهاجمتها وتدميرها، ولكن «العلم لا يمكن قصفه بالقنابل».

وبسحب الولايات المتحدة إيران بعيدًا عن طريق الديمقراطية عام ١٩٥٣، أنشأت دوامة من عدم الاستقرار أدت لاحقًا إلى ظهور تهديدات لم تكن متوقعة. ولم تؤدِّ الحملة الأمريكية الطويلة من فرض العزلة والضغط والتحذيرات إلى أي تغيير في سلوك إيران. ويعني استمرار ذلك الضغط زيادة مضطردة في التوتر الذي يعتقد البعض في واشنطن أنه سوف يؤدي إلى هجوم عسكري، وهو الهجوم الذي سيقودنا إلى عهد جديد من الاضطراب في إيران والمنطقة المحيطة، ولكنه في تلك المرة محاط بخطر الإرهاب النووي.

لقد تسببت الخطة التي وضعتها المخابرات المركزية الأمريكية لخلع رئيس الوزراء مصدق، والتي عرفت بالاسم الكودي عملية أياكس، في مآسٍ لا حصر لها لإيران، وقد ساهمت أيضًا في نشأة الإرهاب المضاد للولايات المتحدة، وأخيرًا تسببت في إضعاف أمن الولايات المتحدة. وتعتبر تلك الحقبة من أوضح الأمثلة تجسيدًا لمفهوم «الضربة المرتدة» في تاريخ القرن العشرين. واليوم، حيث يزداد الخطاب المضاد لإيران في واشنطن عنفًا وحدة، يجب أن

يدرك الأمريكيون على وجه السرعة مدى خطورة الهجوم الأخير الذي شنته الولايات المتحدة على إيران. وقد يتعين عليهم أيضًا التفكير في المسئولية الأخلاقية التي تتحملها الولايات المتحدة نحو إيران على إثر ذلك التاريخ المؤلم.

لقد أظهر الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون قدرة على تفهم إعادة توازن القوى العالمي عن طريق تجاهل ربع قرن من العداء الأمريكي المرير تجاه الصين، وأدت تلك المغامرة إلى تغيير مجرى التاريخ. واليوم يهتف العالم مطالبًا بقائد أمريكي بمثل تلك الجرأة يمكنه تصور علاقة بين إيران والولايات المتحدة تختلف عن تلك التي نشأت بين البلدين منذ عام ١٩٧٩.

مقدمة

ذات يوم حضرت حفل توقيع كتاب لسيدة إيرانية مسنة كتبت مذكراتها، وقد تحدثت لمدة ساعة عن حياتها الحافلة بالأحداث، ومع أنها لم تتطرق إلى السياسة فإنها ذكرت بصورة عابرة أن عائلتها ترتبط بصلة قرابة مع عائلة محمد مصدق الذي كان رئيس وزراء لإيران لمدة ستة وعشرين شهرًا في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وأطيح به في انقلاب نظمته المخابرات المركزية الأمريكية.

وبعد أن انتهت من حديثها لم أستطع أن أقاوم فضولي فاندفعت قائلًا: «لقد ذكرت مصدق، ما الذي تتذكرينه عن الانقلاب الذي أطاح به؟ هل يمكنك إخبارنا المزيد عن ذلك الأمر؟» وعلى الفور تأثرت السيدة واضطربت، وصاحت: «لماذا فعلتم تلك الفعلة الشنعاء أيها الأمريكيون؟ لطالما أحببنا بلادكم، وكانت الولايات المتحدة في نظرنا هي الدولة العظمى، الدولة المثالية، الدولة التي قدمت لنا يد المساعدة في الوقت الذي كانت فيه الدول الأخرى تستغلنا. ولكن بعد ذلك الحدث لم يثق أي إيراني بالولايات المتحدة مرة أخرى. وأؤكد لك أنكم لو لم تفعلوا ذلك، لما حدثت مشكلة الرهائن الذين احتجزوا في سفارتكم في طهران. لقد بدأت كل مشاكلكم عام ١٩٥٣، لماذا فعلتم ذلك؟»

عكس ذلك الانفجار وجود فجوة كبيرة في المعرفة والإدراك تفصل بين معظم الإيرانيين وغير الإيرانيين، ففي إيران يعلم الجميع تقريبًا منذ عقود أن الولايات المتحدة مسئولة عن إنهاء الحكم الديمقراطي عام ١٩٥٣ وتنصيب الدكتاتور محمد رضا شاه الذي استمر حكمه فترة طويلة، وقد

أدى ذلك الحكم الدكتاتوري إلى نشوب الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ التي أتت إلى السلطة بدولة ثيوقراطية معادية لأمريكا اعتنقت الإرهاب بوصفه إحدى أدوات الحكم، وقد ألهم تطرف تلك الدولة المتعصبين ضد الغرب في دول عديدة، خاصة أفغانستان حيث وجدت القاعدة وجماعات إرهابية أخرى موطنًا لها.

وتعد تلك الأحداث تحذيرًا صارخًا للولايات المتحدة ولأي دولة تحاول فرض إرادتها على دولة أخرى. وغالبًا ما تتصرف الحكومات التي تدعم الانقلابات أو الثورات أو الغزو المسلح من منطلق أنها سوف تكسب في نهاية الأمر، وغالبًا ما تفعل. ولكن أشباح تلك الانتصارات قد تعاودها، وأحيانًا تكون مدمرة ومأساوية. وينطبق ذلك الأمر بوجه خاص على الشرق الأوسط الحالي ذي الأوضاع المعقدة والمتقلبة، حيث تساهم التقاليد والتاريخ والدين في تشكيل الحياة السياسية بطرق لا يفهمها العديد من الأجانب.

لقد صدم معظم الناس في الولايات المتحدة بالموجة العنيفة من العداء لأمريكا في أعقاب عام ١٩٧٩، فلم يكن لدى الأمريكيين فكرة عن سبب تفجر مشاعر الكراهية العميقة تجاههم في دولة كانوا يتخيلون أن شعبها يكن لهم مشاعر الود، وذلك لأنه لم يكن أحد في الولايات المتحدة يعلم ما الذي فعلته المخابرات المركزية الأمريكية عام ١٩٥٣.

كان محمد مصدق رجلًا عظيمًا في زمانه، فقد تسبب في هز إمبراطورية وتغيير العالم، وكان اسمه معروفًا للناس في كل أنحاء العالم، وحاول قادة العالم التأثير عليه ولاحقًا خلعه، ولذلك لم يفاجأ أحد عندما اختارته مجلة تايم من بين هاري ترومان ودوايت أيزنهاور ووينستون تشرشل كي يحصل على لقب رجل العام عام ١٩٥١.

لقد كانت عملية أياكس — وهو الاسم الكودي الذي أطلقته المخابرات الأمريكية على الانقلاب ضد مصدق — صدمة كبيرة لإيران والشرق الأوسط والعالم الاستعماري، فقد كانت تلك أول مرة تساهم فيها المخابرات المركزية الأمريكية في الإطاحة بحكومة أجنبية، وقد وضعت نموذجًا يحتذى به للأعوام القادمة، وغيرت الطريقة التي ينظر بها ملايين الناس للولايات المتحدة.

إن هذا الكتاب يقص علينا قصة توضح الكثير عن مصادر التيارات العنيفة التي تجتاح العالم الآن، وهو ليس قصة مغامرة رائعة فقط، بل هو رسالة تحذيرية من الماضي ودرس عملي للمستقبل.

شكر وتقدير

كرست مجموعة صغيرة متفانية من الباحثين جهودًا كبيرة لكشف الحقيقة وراء الأحداث التي أحاطت بانقلاب ١٩٥٣. ومن أكثر هؤلاء الباحثين إصرارًا مارك جيه جاسورويسكي الذي أصبح العميد غير الرسمي لتلك المجموعة. ومن الباحثين الآخرين الذين شاركوه تلك المهمة إيرفاند أبراهاميان وفخر الدين عظيمي وجيمس إيه بيل ومازيار بهروس ومالكولم بيرن وريتشارد دابليو كوتام وفرهد ديبا ومصطفى علم وجيمس إف جود وماري آن هايس وهو ما كاتوزيان وويليام روجر لويس وسيبر زابيه. وبفضل جهودهم، أصبح خروج هذا الكتاب للنور ممكنًا.

كان للمخابرات المركزية الأمريكية روايتها الخاصة للانقلاب، ولكنها ظلت سرًّا لفترة طويلة، وعام ٢٠٠٠ تسربت نسخة منها إلى صحيفة نيويورك تايمز فأكدت صحة معظم المعلومات عن الانقلاب وأضافت تفاصيل كثيرة. وأود أن أعرب عن خالص شكري وتقديري للسيد جيمس ريزن الصحفي الذي حصل على ذلك الخبر للدور الذي اضطلع به في نشره.

وأود أيضًا أن أوجه الشكر إلى أمناء المكتبات والأرشيف لتعاونهم واستعدادهم لمشاركة الوقت والخبرة، وأخص بالذكر أمناء المكتبات العامة بشيكاجو وأوك بارك بولاية إلينوي ومكتبة كينت للحقوق بشيكاجو ومكتبة دوايت د. أيزنهاور بمدينة أبيلين بولاية كنزاس ومكتبة هاري ترومان بمدينة إنديبندنس بولاية ميزوري والأرشيف القومي بكوليدج بارك بولاية مريلاند ومكتب السجلات العامة بكيو جاردنز بمقاطعة ساري بإنجلترا.

وأود أيضًا أن أوجه الشكر إلى من قرءوا المسودات الأولى من الكتاب وأبدوا تعليقات مهمة، ومنهم جانيت أفاري وديفيد باربوزا وإلميرا بايراسلي وديفيد شومان وجيمس إم ستون وجون إي وودز. وهم لا يتحملون أي مسئولية تجاه النسخة النهائية للكتاب، ولكنني أود التعبير عن خالص تقديري لهم.

وقد طلب مني معظم الإيرانيين الذين ساعدوني في البحث عند وجودي في إيران ألا أذكر أسماءهم، إنهم يعرفون أنفسهم جيدًا، ولهم أوجّه خالص الشكر والتقدير.

ملاحظات

لا يوجد نظام عالمي لكتابة الحروف الفارسية باللغة الإنجليزية، ولذلك توجد اختلافات عديدة في الهجاء الإنجليزي للأسماء الإيرانية وبعض الكلمات الأخرى، ففي الكتب والمقالات الإنجليزية التي تتحدث عن مصدق، على سبيل المثال، كتب اسمه باثنتي عشرة طريقة مختلفة تقريبًا.

لقد اخترت الهجاء الذي يبدو أقرب ما يكون للنطق الأصلي، ووحدت أيضًا الهجاء وغيرت الصيغ التي وردت في المستندات المستشهد بها كي أصل إلى صيغة موحدة، بالإضافة إلى حذف علامات الإعجام غير المألوفة لقارئ اللغة الإنجليزية.

وفي مواضع عديدة أجريت بعض التعديلات البسيطة في الترجمة وعلامات الترقيم من أجل توضيح المعنى فحسب، ولا تمثل تلك التعديلات أي تغييرات جوهرية.

يطلق على إدارة المخابرات السرية البريطانية التي تعني بالعمليات الخارجية، وكي أتجنب حدوث لبس أشرت إليها باسمها السابق خلال الكتاب.


اليونان
البحر الأسود
روسيا
جورجيا
كازاخستان
كازاخستان
قيرغزستان
أوزباكستان
الصين
أرمينيا
جمهورية أذربيجان
تركيا
تركمانستان
طاجيكستان
بحر قزوين
أذربيجان
أحمد آباد
طهران
قبرص
سوريا
أفغانستان
البحر الأبيض المتوسط
لبنان
العراق
أصفهان
إسرائيل
إيران
الأردن
آبادان
أطلال بيرسيبوليس
شيراز
الكويت
باكستان
الخليج العربي
فارس
مصر
الهند
البحرين
قطر
المملكة العربية السعودية
البحر الأحمر
الإمارات العربية المتحدة
عمان
البحر العربي
السودان
مقياس الرسم بالأميال
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠
إريتريا
اليمن
إثيوبيا

الفصل الأول

مساء الخير يا سيد روزفلت

كانت طهران تغط في نوم عميق عندما انطلقت قافلة سيارات غريبة في الظلام قبيل منتصف الليل، وذلك في الخامس عشر من أغسطس عام ١٩٥٣؛ ففي المقدمة انطلقت سيارة مصفحة تحمل شارات عسكرية، وخلفها سيارتان من طراز جيب وشاحنات عسكرية عديدة محملة بالجنود. لقد كان الجو شديد الحرارة في ذلك اليوم، ولكن حدة القيظ هدأت بقدوم الليل، وكان الهلال بازغًا في الأفق. كانت تلك الليلة هي المثلى لإسقاط الحكومة.

جلس العقيد نعمت الله نصيري قائد الحرس الملكي في السيارة المصفحة شديد الثقة، فقد حمل في جيبه مرسومًا من شاه إيران بإقالة رئيس الوزراء محمد مصدق، وكان في طريقه لتقديم ذلك المرسوم لمصدق والقبض عليه إذا لزم الأمر.

وقد افترض عملاء المخابرات الأمريكيون والبريطانيون الذين خططوا لذلك الانقلاب أن مصدق سوف يستدعي الجيش في الحال من أجل إخماده، فرتبوا الأمر ألا يرد عليه أحد عندما يتصل بالجيش. وكان على العقيد نصيري أن يتوقف أولًا عند منزل رئيس أركان الجيش ويقبض عليه، ثم ينطلق لتوصيل ذلك المرسوم المصيري.

وقد فعل العقيد تمامًا كما طُلب منه، ولكنه عندما بلغ وجهته الأولى وجد ما لم يتوقعه؛ فمع أن الوقت متأخر، لم يكن رئيس الأركان الجنرال تقي رياحي موجودًا في منزله، لم يكن هناك أحد في المنزل على الإطلاق، لا خدم ولا حرس.

ربما تعتقد أن العقيد نصيري قد شعر بوجود شيء ما خطأ، ولكن ذلك لم يحدث، بل ركب سيارته المصفحة مرة أخرى وأمر السائق بالانطلاق نحو الهدف الرئيسي؛ منزل رئيس الوزراء، وانطلقت معه آمال اثنتين من كبرى أجهزة المخابرات في العالم.

لم يكن العقيد نصيري من الحماقة بحيث يقوم بتلك المهمة الجريئة من تلقاء نفسه؛ لقد كان المرسوم الذي يحمله مشكوكًا في صحته القانونية، حيث إنه في جمهورية إيران الديمقراطية لا يمكن تعيين رؤساء الوزارة أو إقالتهم إلا بموافقة البرلمان، ولكن تلك الليلة كانت نتاج أشهر عديدة من التخطيط الذي قامت به المخابرات الأمريكية والبريطانية، وهذا الانقلاب الذي خططوا له كان بناء على أوامر الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور ورئيس الوزراء البريطاني وينستون تشرشل.

عام ١٩٥٣ كانت الولايات المتحدة لا تزال كيانًا جديدًا بالنسبة لإيران، وكان العديد من الإيرانيين يظنون أن الولايات المتحدة صديق يدعم الكيان الديمقراطي الهش الذي كافحت إيران لمدة نصف قرن من أجل بنائه، وكانت إيران تخشى إنجلترا، لا الولايات المتحدة، بوصفها القوة الاستعمارية الغاشمة التي تستغلها.

ومنذ الأعوام الأولى من القرن العشرين احتكرت شركة بريطانية تابعة للحكومة البريطانية إنتاج النفط الإيراني وبيعه، وقد لعبت الثروة التي تدفقت من الأراضي الإيرانية دورًا حيويًّا في الإبقاء على إنجلترا القوة العظمى في العالم، وعاش معظم الإيرانيين في فقر مدقع ورزحوا تحت وطأة الظلم، واستمر الوضع هكذا حتى عام ١٩٥١ عندما لجئوا إلى مصدق الذي جسد غضبهم من شركة النفط البريطانية الإيرانية، وأخذ على عاتقه أن يطرد تلك الشركة من إيران ويستعيد احتياطي البلاد الهائل من النفط ويحرر إيران من الخضوع للسلطة الأجنبية.

وقد نفذ مصدق وعده بحماس منقطع النظير؛ فوسط هتاف الجماهير أمم الشركة البريطانية الإيرانية، وهي أعلى الشركات البريطانية ربحًا في العالم، وخلال فترة قصيرة استولى الإيرانيون على معامل التكرير الضخمة التابعة للشركة في عبدان التي تقع على الخليج العربي.

وهكذا أخذت إيران حمى الوطنية، وأصبح مصدق بطلًا قوميًّا، وأغضب ذلك الإنجليز الذين اتهموا مصدق بالاستيلاء على ممتلكاتهم؛ فطالبوا أولًا بمحاكمته في محكمة العدل الدولية ومعاقبته بواسطة الأمم المتحدة، ثم أرسلوا سفنًا حربية إلى الخليج العربي، وأخيرًا فرضوا حظرًا تجاريًّا على إيران، مما أدى إلى تحطيم الاقتصاد الإيراني، وعلى الرغم من تلك الحملة فالعديد من الإيرانيين كانوا في قمة الابتهاج بالجرأة التي تمتع بها مصدق، مثلما كان يشعر القادة المناهضون للاستعمار في آسيا وإفريقيا.

ولم يتأثر مصدق مطلقًا بالحملة البريطانية ضده، حيث كتبت إحدى الصحف الأوروبية أن مصدق «يفضل أن يحترق بنار النفط الإيراني عن أن يتنازل للإنجليز». ولفترةٍ ظل الإنجليز يفكرون في إرسال جيش مسلح لاستعادة حقول البترول ومعامل التكرير، ولكنهم تخلوا عن تلك الفكرة عندما رفض الرئيس هاري ترومان دعمها. ولم يتبقَّ سوى خيارين: ترك مصدق في السلطة أو تنظيم انقلاب لخلعه، ولم يواجه رئيس الوزراء البريطاني تشرشل، وهو ربيب الإمبريالية، أي مشكلة في تفضيل خيار الانقلاب.

بدأ العملاء البريطانيون في التآمر للإطاحة بمصدق بعد تأميمه شركة النفط بفترة وجيزة، وكانوا شديدي الحماس والعنف بشكل أضر بهم، وعندما علم مصدق بتآمرهم أغلق السفارة البريطانية في أكتوبر/تشرين الأول ١٩٥٢، واضطر جميع الدبلوماسيين البريطانيين في إيران، بما فيهم العملاء السريون الذين يعملون تحت غطاء دبلوماسي، إلى الرحيل، ولم يبقَ أحد كي ينظم الانقلاب.

وفي الحال طلب البريطانيون المساعدة من الرئيس ترومان، ولكنه كان في أعماقه متعاطفًا مع الحركات القومية من أمثال الحركة التي قادها مصدق، ويحتقر الإمبريالية من الطراز القديم مجسدة في مديري الشركة البريطانية الإيرانية. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المخابرات المركزية الأمريكية لم تطح أبدًا بأي حكومة من قبل، ولم يرغب ترومان في أن تكون له السابقة.

ولكن الموقف الأمريكي حيال الانقلاب في إيران تغير تمامًا بعد انتخاب دوايت أيزنهاور رئيسًا في نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٥٢؛ ففي

غضون بضعة أيام من الانتخابات قدم كريستوفر مونتاجيو وودهاوس أحد كبار عملاء المخابرات البريطانية إلى واشنطن كي يلتقي بكبار مسئولي المخابرات المركزية ووزارة الخارجية الأمريكية، وقرر وودهاوس بذكاء ألا يلجأ إلى الحجة البريطانية التقليدية، وهي أن مصدق يجب أن يرحل لأنه أمم الممتلكات البريطانية؛ فتلك الحجة لم تكن تلقى قبولًا في واشنطن، وكان وودهاوس يعلم جيدًا ما الذي يثير حماسهم.

كتب وودهاوس في مرحلة لاحقة عن ذلك الأمر قائلًا: «لم أكن أرغب في أن أُتهم بمحاولة استغلال الأمريكيين لمصلحة البريطانيين، لذا فقد قررت أن أؤكد على الخطر الشيوعي الذي تمثله إيران بدلًا من حاجتنا لاستعادة السيطرة على صناعة النفط.»

لقد أُعد هذا الطلب بحيث يحفز الشقيقين اللذين سوف يوجهان السياسة الخارجية الأمريكية بعد تنصيب أيزنهاور رئيسًا، وهما جون فوستر داليس وزير الخارجية المقبل وألان داليس مدير المخابرات المركزية الأمريكية المقبل اللذين كانا من أشرس مقاتلي الحرب الباردة، وكانا يريان العالم ساحة معركة أيديولوجية، وينظران لكل صراع محلي من منظور الصراع الأكبر بين الشرق والغرب. ومن وجهة نظرهما، فإن أي دولة لا ترتبط بتحالف صريح مع الولايات المتحدة تعتبر عدوًّا محتملًا، وقد اعتبرا إيران تحديدًا عدوًّا خطرًا.

كانت إيران تتمتع بثروة نفطية هائلة، ولها حدود ممتدة مع الاتحاد السوفييتي، وبها حزب شيوعي نشط ورئيس وزراء يؤمن بالقومية. وكان الأخوان داليس يعتقدان أن إيران مهددة بالوقوع فريسة للشيوعية قريبًا، وكانت فكرة وجود «صين أخرى» تثير الرعب لديهم، ولذلك عندما قدم البريطانيون اقتراحهم للإطاحة بمصدق واستبدال رئيس وزراء موالٍ للغرب به، أبدى الأمريكيون اهتمامهم على الفور.

وفور تولي الرئيس أيزنهاور الحكم في العشرين من يناير/كانون الثاني ١٩٥٣، أبلغ الأخوان داليس نظيريهما البريطانيين باستعدادهما للتحرك من أجل الإطاحة بمصدق، وأطلقا على ذلك الانقلاب الاسم الكودي عملية أياكس، أو بلغة المخابرات الأمريكية TPAJAX، واختارا لإدارة تلك المهمة أحد مسئولي

المخابرات المركزية الأمريكية الذين يتمتعون بخبرة كبيرة في شئون الشرق الأوسط، وهو كيرمت روزفلت حفيد الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت.

وعلى غرار بقية أفراد عائلته الشهيرة، كان كيرمت روزفلت مولعًا باتخاذ إجراءات مباشرة، وهو معروف بالحسم في أوقات الأزمات، كان يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا، ويرأس في ذلك الوقت إدارة الشرق الأدنى وآسيا بالمخابرات المركزية الأمريكية، وكان أستاذًا مشهودًا له بالبراعة في عمله السري، وقد وصفه العميل الروسي كيم فيلبي بالأمريكي النموذجي الهادئ، بالإضافة إلى كونه «رجلًا لطيفًا حلو المعشر من شرق الولايات المتحدة ذا علاقات اجتماعية مثالية، مهذبًا أكثر من كونه مثقفًا، شديد التواضع سواء أكان ضيفًا أم مضيفًا، وله زوجة رائعة، وفي الواقع فإنه آخر شخص يمكن أن تتخيله غارقًا حتى النخاع في الحيل القذرة.»

وفي تلك الأيام كان عملاء المخابرات المركزية الأمريكية يعتنقون نوعًا من التصورات المثالية، حيث يعتقدون أنهم يقومون بالأعمال القذرة اللازمة من أجل تحقيق الحرية، والكثير منهم يمزجون بين روح المفكر والمغامر، ولكن لم يمزج أحدهم بين هاتين الصفتين مثلما فعل كيرمت روزفلت.

وفي بداية شهر يوليو/تموز تجاهل روزفلت أوامر طبيب المخابرات المركزية الأمريكية بالخضوع لجراحة عاجلة في الكلى وسافر إلى بيروت لإجراء مهمته السرية، ومن هناك انطلق بالسيارة عبر صحراء سوريا والعراق، وكاد يظهر مشاعره وهو يدخل إيران عن طريق معبر ناءٍ:

> تذكرت ما كتبه والدي حول وصوله إلى أفريقيا مع والده ثيودور روزفلت عام ١٩٠٩ على متن رحلة African Game Trails: «لقد كانت مغامرة رائعة، وكان العالم بأكمله صغيرًا.» وفي تلك اللحظة شعرت بما كان يشعر به آنذاك؛ اضطربت أعصابي وحلقت روحي عاليًا ونحن نتحرك في الطريق الجبلي. وفي التاسع عشر من يوليو/تموز عام ١٩٥٣، كان مسئول الجمارك والهجرة الذي قابلنا في مدينة خانقين[١] شديد التبلد والغباء وشبه أمي.

---

[١] مدينة تقع ضمن محافظة ديالى في العراق بالقرب من الحدود مع إيران. (المترجمة)

وفي تلك الأيام كانت جوازات السفر الأمريكية تتضمن وصفًا مختصرًا لأي علامات مميزة في حاملها، وليس كما هو الحال الآن. وبمساعدة وتشجيع مني كتب الحارس اسمي بصعوبة بالغة كالتالي «السيد ذو الندبة على الناحية اليمنى من الجبهة»، وقد شعرت أن ذلك فأل حسن.

قضى روزفلت أسبوعين في طهران يدير أعماله من المقر الذي استأجره له أحد العملاء الأمريكيين، وقد أصبحت العقود التي قضيت في المكائد البريطانية في إيران، بالإضافة إلى تدخل المخابرات المركزية الأمريكية حديثًا، مصدر قوة له في ميدان المعركة. ومن ضمن مصادر القوة التي تمتع بها أيضًا حفنة من العملاء الإيرانيين ذوي الخبرة وسعة الحيلة الذين قضوا أعوامًا في بناء شبكة سرية من السياسيين وضباط الجيش ورجال الدين ومحرري الأخبار وعصابات الشوارع المؤيدين لهم، وكانت المخابرات المركزية الأمريكية تدفع لهؤلاء العملاء عشرات الآلاف من الدولارات شهريًّا، واستحقوا كل سنت منها. وخلال ربيع وصيف عام ١٩٥٣، لم يمر يوم دون أن يوجه أحد الملالي أو المعلقين على الأخبار أو السياسيين الذين تدعمهم المخابرات المركزية الأمريكية النقد إلى مصدق، وقد رفض رئيس الوزراء الذي يحترم حرية الصحافة منع تلك الحملة الموجهة ضده.

لم يكن العملاء الإيرانيون الذين يأتون إلى فيلا روزفلت يعرفون سوى اسمه المستعار جيمس لوكريدج، وبمرور الوقت نما بينهم نوع من الصداقة وبدأ بعض الإيرانيين ينادونه باسم «جيم»، وهو ما كان مثار تندر له، وكانت الأوقات الوحيدة التي يكاد يفضح فيها سره أثناء لعب التنس الذي كان يمارسه بانتظام في السفارة التركية وفي مقر المعهد الفرنسي؛ فعندما يخطئ في إحدى الرميات يلعن نفسه قائلًا: «يا لك من غبي يا روزفلت!» وقد سئل أكثر من مرة عن سبب تلك العادة، فكان يجيب قائلًا إنه جمهوري متحمس، ولذلك فهو يكره فرانكلين دي روزفلت حتى إنه يستخدم اسمه في السباب.

وقد تضمنت الخطة الموضوعة لعملية أياكس شن حملة نفسية مكثفة ضد مصدق، كانت المخابرات المركزية الأمريكية قد بدأتها بالفعل، وتلاها

إعلان عن طرد الشاه له من منصبه. وعلى الجماعات والوحدات العسكرية التي حصل قادتها على مرتبات من المخابرات المركزية الأمريكية أن يقضوا على أي محاولة للمقاومة من جانب مصدق، ويتلو ذلك الإعلان عن اختيار الشاه للجنرال فضل الله زاهدي — وهو ضابط متقاعد حصل على ما يزيد عن مائة ألف دولار من المخابرات المركزية الأمريكية — رئيسًا جديدًا للوزراء.

ومع حلول شهر أغسطس كانت إيران تضطرم بنار الفتنة، حيث نظم الغوغاء الذين يعملون لحساب المخابرات المركزية الأمريكية احتجاجات ضد مصدق ومسيرات في الشوارع حاملين صور الشاه ومرددين الشعارات الملكية، وقدم العملاء الأجانب رشوة لأعضاء البرلمان وكل الأشخاص الآخرين الذين رأوهم ذوي نفع في محاولة الانقلاب المقبلة.

وصل هجوم الصحافة على مصدق إلى مستويات غير مسبوقة من الحدة والعنف. فقد اتهم في المقالات الصحفية بامتلاكه ميولًا شيوعية ومخططات ضد مصلحة العرش، واتهم أيضًا بانحداره من أصول يهودية وبتعاطفه سرًّا مع البريطانيين. ولم يعلم مصدق أن معظم ذلك النقد موجه من المخابرات المركزية الأمريكية أو كتبه محترفو الدعاية في واشنطن، وقدر ريتشارد كوتام أحد محترفي الدعاية أن أربعة أخماس الصحف في طهران كانت واقعة تحت تأثير المخابرات المركزية الأمريكية.

وقد قال كوتام بعد ذلك بأعوام عديدة: «كان أي مقال أكتبه ينشر في اليوم التالي مباشرة في الصحف الإيرانية، وهو ما كان يعطيني شعورًا بالقوة؛ فقد رتبوا للأمر بحيث يظهر مصدق في صورة المتآمر الشيوعي المتعصب.»

وحين اكتسبت الخطة قوة قابل روزفلت أكثر العقبات خطورة في طريقه: محمد رضا شاه؛ فالعاهل الذي يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا والشاه الثاني في أسرة بهلوي ذو طبيعة تتميز بالجبن والتردد، ورفض بإصرار شديد أن يتورط في تلك الخطة الجريئة، وقد وصفه أحد الدبلوماسيين البريطانيين قائلًا: «إنه يكره اتخاذ القرارات ولا يمكن الاعتماد عليه للالتزام بها بعد اتخاذها، فهو لا يمتلك شجاعة أخلاقية ويستسلم بسهولة للخوف.»

ولم تكن الصفات الشخصية فحسب هي ما يقيد الشاه؛ فمصدق أكثر الشخصيات شعبية في تاريخ إيران الحديث، ومع أن الحملة البريطانية للتدمير والتخريب الاقتصادي قد أضعفته فإنه كان في ذلك الوقت لا يزال محبوبًا على نطاق واسع، ولم يكن مؤكدًا هل يملك الشاه السلطة القانونية اللازمة لإقالته، ومن الممكن أن تعطي تلك الخطة نتائج عكسية وتعرض حياة الشاه للخطر، بل تعرض النظام الملكي ذاته أيضًا.

ولكن أيًّا من ذلك لم يثبط من عزم روزفلت، ومن أجل تنفيذ الانقلاب كان يحتاج إلى قرارات موقعة من الشاه بطرد مصدق ووضع الجنرال زاهدي بدلًا منه، ولم يشك روزفلت أبدًا في إمكانية الحصول على تلك القرارات؛ فقد كانت معركته مع الشاه غير متكافئة منذ البداية، فروزفلت ذكيّ متمرس، وتوجد قوى عالمية هائلة تسانده، والشاه ضعيف وساذج ووحيد.

تمثلت مناورة روزفلت الأولى في إرسال مندوبين قد يكون لهم تأثير خاص على الشاه، فأرسل له شقيقته التوأم الأميرة أشرف كي تزوره وتقوي من عزيمته؛ كانت الأميرة على النقيض من شقيقها، فبقدر ما كان هو متبلد الحس كسولًا كانت هي متوقدة الذهن حادة الطباع، والتقريع الذي توجهه له لا يصدق، حيث طالبته ذات مرة بحضور وفد من الدبلوماسيين الأجانب أن يصبح رجلًا وإلا فسوف تبوح للجميع بجبنه الشديد. وكانت الأميرة تكره مصدق لأنه كان عدوًّا للسلطة الملكية، وأصبح هجومها على حكومته حادًّا حتى إن الشاه شعر أنه من الأفضل إرسالها خارج البلاد، ومن منفى الأميرة الذهبي في أوروبا كانت تشاهد الأحداث التي تجري في موطنها بحماس شديد.

كانت الأميرة أشرف تستمتع بالحياة في نوادي القمار والملاهي الليلية بفرنسا عندما اتصل بها أسد الله راشيديان، وهو أحد أهم العملاء الإيرانيين الذين يعملون لحساب روزفلت، ولكنها لم ترحب بالدعوة، فزارها في اليوم التالي وفد من العملاء البريطانيين والأمريكيين كي يكرروا عليها الدعوة بشكل أقوى، وكان قائد الوفد — وهو أحد كبار العملاء البريطانيين ويدعى نورمان داربيشاير — يتمتع ببصيرة ثاقبة، حيث أحضر معه معطفًا من

الفراء وحقيبة من النقود هدايا للأميرة. وذكر داربيشاير لاحقًا أن الأميرة عندما رأت تلك الإغراءات «لمعت عيناها» وانهارت مقاومتها ووافقت على السفر إلى طهران، ودخلت البلاد باسم عائلة زوجها (مدام شفيق). وفي بادئ الأمر رفض شقيقها استقبالها، ولكن بعد أن ضغط عليه بشدة زملاء على صلة بالمخابرات المركزية الأمريكية لان قليلًا. وكان لقاء الأخ والأخت في مساء التاسع والعشرين من يوليو/تموز حافلًا بالتوتر، وأخفقت في إقناعه بإصدار تلك القرارات المصيرية، ومما زاد الأمر سوءًا أن أنباء وجودها تسربت وأدت إلى انطلاق عاصفة من الاحتجاج، وابتهج الجميع بعودتها إلى أوروبا سريعًا.

ذهب روزفلت بعد ذلك إلى الجنرال إتش نورمان شوارتسكوف الذي قضى معظم عقد الأربعينيات في إيران يقود فوجًا عسكريًّا، والذي كان الشاه يشعر بالامتنان له، وقد أعطت المخابرات المركزية الأمريكية الجنرال شوارتسكوف «مهمة تغطية» من الاجتماعات والمعاينات في لبنان وباكستان ومصر بحيث تفسر زيارته لإيران بأنها مجرد محطة توقف قصيرة. وطبقًا لإحدى الروايات فقد وصل إلى هناك حاملًا «حقيبتين كبيرتين» ملئتا بملايين الدولارات نقدًا، فقابل روزفلت أولًا ثم المسئولين الإيرانيين عن العملية الذين وزع أموالًا كثيرة عليهم. وفي الأول من أغسطس زار الشاه في قصر سعد أباد.

وكانت تلك المقابلة غريبة؛ ففي بداية الأمر رفض الشاه أن يوجه أي كلمة إلى ضيفه، مشيرًا بيده إلى احتمال وجود أجهزة تنصت، ثم قاد شوارتسكوف إلى قاعة رقص كبيرة وسحب منضدة إلى وسط القاعة وجلس فوقها وطلب من الجنرال أن ينضم إليه، ثم همس له بأنه لم يقرر بعد هل سيوقع على القرارات التي يريدها روزفلت أم لا، فهو يشك في استجابة الجيش لأي قرار يصدره، ولم يكن يرغب في أن ينضم للطرف الخاسر في مثل تلك العملية الخطرة.

شعر شوارتسكوف وهو يستمع أن مقاومة الشاه بدأت تضعف، وأن زائرًا واحدًا آخر يكفي لتحقيق النتيجة المطلوبة، وذلك الزائر يجب أن يكون روزفلت نفسه، كان ذلك الاقتراح خطرًا، فإذا شوهد روزفلت في القصر قد تتسرب أنباء وجوده في إيران وتعرض العملية للخطر، ولكن شوارتسكوف أخبره أنه لا يوجد بديل.

كان روزفلت يتوقع تلك النصيحة، وكتب عن ذلك الأمر لاحقًا: «كنت متأكدًا منذ البداية أن اللقاء الشخصي سوف يكون ضروريًّا، فيمكننا أنا والشاه أن نحل المشاكل العديدة التي تواجهنا إذا جلسنا على انفراد في مكان آمن، ولا يمكن القيام بذلك إلا في لقاء شخصي. وعلى الأغلب يجب أن نتقابل مرات عديدة وليس مرة واحدة، لذلك كلما عجلنا ذلك اللقاء كان أفضل.»

أرسل روزفلت العميل الثقة أسد الله راشيديان لمقابلة الشاه في الثاني من أغسطس كي يمهد الطريق لزيارته، والرسالة التي كلف راشيديان بتوصيلها بسيطة: إن البريطانيين والأمريكيين يخططون لانقلاب ولن يثنيهم عنه شيء. وفي تلك الظروف، كما لاحظ راشيديان بدهاء، لم يكن الشاه يملك خيارًا سوى التعاون معهم، وهز الشاه رأسه في صمت موافقًا.

لكن روزفلت وحده هو الذي يملك إبرام الاتفاق، فطلب من أحد العملاء في البلاط الملكي الذي كان يعرف باسم روزينكرانتز أن يخبر الشاه بأن «هناك رجلًا أمريكيًّا مفوضًا بالحديث نيابة عن أيزنهاور وتشرشل يطلب مقابلة خاصة.» وفي خلال بضع ساعات وافق الشاه على العرض وأمر بإرسال سيارة إلى فيلا روزفلت في ذلك المساء عند منتصف الليل.

وبعد استلامه للرسالة فكر روزفلت قائلًا: «ساعتان من الانتظار! لأعد ثيابي إذن. لم تكن تلك الثياب صالحة لمقابلة ملكية، ولكنها على الأقل كانت تصلح في تلك الظروف الغريبة؛ ارتديت قميصًا غامق اللون وسروالًا رماديًّا وحذاء أسود مريحًا، لم تكن تلك الثياب في قمة الأناقة، ولكنها كانت تؤدي الغرض ولا تلفت الأنظار.»

انتظر روزفلت — الذي أجرى حوارًا مع الشاه منذ ستة أعوام أثناء قيامه ببحث لتأليف كتاب بعنوان «العرب والنفط والتاريخ» — قدوم الميعاد وبصحبته مجموعة من العملاء، وفضل ألا يتناول الشراب، ولكن رفاقه لم يكن لديهم مثل تلك التحفظات، وعند منتصف الليل خرج من البوابة الأمامية، وكانت سيارة بانتظاره، فركب في المقعد الخلفي.

لم يتحرك أي شيء في الطرقات بينما كان روزفلت يتجه نحو القصر الفخم، وعندما كانت السيارة تصعد التل الذي يقع فوقه القصر قرر أنه يجب أن يختفي عن الأنظار، وكان مضيفوه قد تركوا له غطاء ثقيلًا على مقعد السيارة، واستفاد منه خير استفادة، فرقد على الأرض وتدثر به.

لم تكن هناك أي مشكلة في عبور بوابة الحراسة، بل مجرد تحية روتينية، وتابعت السيارة سيرها للحظات ثم توقفت قبيل السلم الرخامي العريض للقصر، وهنا رفع روزفلت الغطاء عنه وقام واقفًا، فرأى شبحًا ضئيلًا يقترب نحوه، أدرك في الحال أنه الشاه نفسه، الذي اقترب من السيارة وفتح الباب ودلف إليها، وهنا تسلل السائق خلسة إلى مكان آخر.

«مساء الخير يا سيد روزفلت» كانت تلك أول كلمة تفوه بها الشاه مادًّا يده للمصافحة، وتابع قائلًا «لم أكن أتوقع مجيئك، ولكنه حدث سار.»

أخبر روزفلت الشاه بأنه موجود في إيران بصفته ممثلًا لأجهزة المخابرات الأمريكية والبريطانية، وأن الشاه يمكنه التأكد من ذلك عن طريق كلمة سر سوف تذاع في البي بي سي في الليلة التالية؛ فقد رتب تشرشل الأمر بحيث تختتم إذاعة البي بي سي إرسالها بعبارة «الساعة الآن منتصف الليل تمامًا» بدلًا من «الساعة الآن منتصف الليل» كالمعتاد؛ ولم يكن الشاه في حاجة لمثل تلك التأكيدات، فالرجلان يفهم أحدهما الآخر.

ولكن برغم ذلك كان الشاه مترددًا في الاشتراك في تلك الخطة، حيث أخبر روزفلت أنه ليس مغامرًا، ولا يمكنه تحمل نتائج المغامرة، وهنا زادت نبرة صوت روزفلت حدة، وأخبر الشاه أن ترك مصدق في السلطة سوف يؤدي إلى «أن تصبح إيران دولة شيوعية أو نسخة أخرى من كوريا»، وهو ما لم يكن القادة في الغرب مستعدين لقبوله، ولتجنب حدوث ذلك فقد اتفقوا على خطة للإطاحة بمصدق، وفي الوقت ذاته زيادة السلطة الممنوحة للشاه، وعليه أن يوافق على تنفيذ تلك الخطة في غضون بضعة أيام، وإلا فسوف يغادر روزفلت البلاد ويفكر في «خطة بديلة».

لم يعطِ الشاه إجابة مباشرة، ولكنه اقترح أن يتقابلا مرة أخرى في اليوم التالي، وقبل أن يترجل الشاه من السيارة ويدلف إلى الظلام، ألقى نظرة أخرى على روزفلت وقال «يسعدني أن أرحب بك مرة أخرى في بلادي.»

ومنذ تلك الليلة ظل روزفلت يقابل الشاه كل يوم تقريبًا عند منتصف الليل، ويدخل القصر راكبًا نفس السيارة على المقعد الخلفي ومتدثرًا بنفس الغطاء، وقبل كل اجتماع وبعده كان يتشاور مع العملاء الإيرانيين. وعندما شكت الشرطة الإيرانية في الفيلا التي كان يقيم بها توقف عن العمل هناك

وتوصل إلى طريقة أخرى لعقد اجتماعاته، فاشترى سيارة أجرة إيرانية، وفي المواعيد المتفق عليها يقودها إلى مكان هادئ رافعًا لافتة «تحت الطلب»، ثم يترجل ويأخذ في السير جيئة وذهابًا حتى يأتي أحد العملاء شديدي الحماس للعملية ويصطحبه في سيارة من طراز كرايزلر أو بويك، حيث يضعون خططًا يومية أثناء تجوالهم في ضواحي المدينة الجبلية.

وأثناء محادثاتهما أخبر روزفلت الشاه أنه يمتلك تحت تصرفه «ما يوازي مليون دولار تقريبًا»، بالإضافة إلى العديد من «المنظمين ذوي الكفاءة والخبرة» الذين يمكنهم «توزيع المنشورات وتنظيم الجماهير وتعقب المعارضة.» وقد وصف عملية أياكس بأنها مبنية على «أربعة محاور للهجوم»؛ أولًا: شن حملة في المساجد والصحف والشوارع تقلل من شعبية مصدق. ثانيًا: توصيل الضباط الملكيين قرار طرده. ثالثًا: يمسك الغوغاء بزمام الأمور في الشارع. رابعًا: يظهر الجنرال زاهدي منتصرًا ويقبل ترشيح الشاه له في منصب رئيس الوزراء.

كانت تلك الخطة جذابة، ولكنها لم تكن مقنعة بالدرجة الكافية، وظل الشاه مترددًا، وتحول مزاجه إلى ما أطلق عليه روزفلت «التردد العنيد»، ولكن كان من المستحيل الاستمرار في ذلك الأمر دون معاونة الشاه كما أخبر بذلك روزفلت رؤساءه في المخابرات المركزية الأمريكية في برقية بعث بها إليهم، ولذلك فقد استمر روزفلت في الضغط على الشاه، وأخيرًا، كان من المحتم أن تنهار مقاومة الشاه، فوافق على توقيع الفرمانات، ولكن بشرط أن يسمح له بمغادرة طهران إلى مكان آمن بعدها مباشرة.

لم يعرف محمد رضا شاه بالشجاعة قط، ولذلك لم يُفاجأ روزفلت بذلك الاحتياط الأخير، وقرر الرجلان أن أكثر الأماكن أمانًا كي يختبئ فيها الشاه هو كوخ صيد تمتلكه العائلة المالكة بالقرب من رامسار على ساحل بحر قزوين، وكان هناك مطار قريب منه، وهو ما وجده الشاه مطمئنًا، وقال الشاه بحدة: «إذا حدثت أي مشاكل فسوف نرحل أنا والإمبراطورة بالطائرة إلى بغداد.»

تقابل الرجلان للمرة الأخيرة قبيل فجر التاسع من أغسطس، وقبل أن يودع روزفلت الشاه شعر أنه من اللائق أن يشكره على اتخاذه قرارًا

بالتعاون، رغم أنه اتخذ ذلك القرار على مضض. كانت تلك اللحظة تاريخية، ولذا فقد كانت تتطلب قولًا غير عادي، وفي نهاية الأمر وجد روزفلت طريقة رائعة يصوغ بها رسالته، حيث توصل إلى كذبة صغيرة يجمل بها الموقف، فصاح قائلًا: «مولاي، لقد استلمت برقية هذا المساء من واشنطن طلب مني فيها الرئيس أيزنهاور أن أبلغك بما يأتي: أتمنى لجلالتكم التوفيق، وإذا كان بهلوي وروزفلت لا يمكنهم حل تلك المشكلة الصغيرة معًا، فلا يوجد أمل في أي شيء، وإنني على ثقة تامة من قدرتك على تحقيق ذلك الأمر.»

تم الاتفاق على إحضار ساعي المخابرات المركزية الأمريكية الفرمانات المهمة إلى القصر في الصباح الباكر، على أن يوقعها الشاه ويرحل في الحال إلى مخبئه في رامسار. كان كل شيء على ما يرام.

وعندما عاد روزفلت إلى الفيلا حاملًا تلك الأخبار العظيمة، أقام هو وعملاؤه احتفالًا ضخمًا وأسرفوا في الشراب، ولم يخلد إلى النوم إلا في الخامسة صباحًا، وبعد بضع ساعات استيقظ على أخبار مفزعة؛ فقد حدث خطأ في اللحظة الأخيرة، حيث وصل الساعي الذي كان من المفترض أن يحصل على توقيعات الشاه إلى القصر متأخرًا، وعندما وصل كان الشاه والملكة قد رحلا.

وسواء أكان ذلك خطأ بسيطًا غير مقصود في التوقيتات أم محاولة من الشاه للهروب من توقيع الفرمانات، فروزفلت صمم على عدم السماح لذلك الأمر بإفساد الخطة، فتلك الفرمانات تلعب دورًا أساسيًّا في الانقلاب الذي خطط له، فلم تكن تمثل ورقة توت من الشرعية فحسب، بل إنها أيضًا قلب الخطة، وإذا لم يكن الشاه في طهران كي يوقعها، يجب أن تبعث إليه أينما كان.

أدرك روزفلت بسرعة أن الشخص الأفضل كي يقدم المساعدة في تلك اللحظة هو العقيد نصيري من الحرس الملكي الذي كان مناصرًا للملكية، ويمكنه العثور على طائرة والإقلاع بها، ويرتبط بعلاقة قوية مع الشاه. تمت الترتيبات بسرعة فائقة، وفي تلك المرة نجح الأمر، حيث انطلق نصيري إلى رامسار وحصل على توقيع الشاه على الفرمانات، ونظرًا لسوء الأحوال الجوية الذي أعاقه عن الإقلاع بالطائرة أرسلها إلى طهران بالسيارة.

قضى روزفلت ورفاقه نهارهم ينتظرون بفارغ الصبر حول حمام السباحة، غير مدركين ما الذي جعل نصيري يتأخر إلى هذا الحد، وعند قدوم الليل بدءوا في التدخين ولعب الورق واحتساء الفودكا. كانت طهران تخضع لحظر تجول بعد التاسعة مساء، ولكن بعد أن تجاوزت الساعة التاسعة كانوا لا يزالون يأملون في ظهور أي أخبار. وكان الليل قد انتصف تقريبًا عندما سمعوا ضجيجًا عند البوابة، فهرعوا إليها، فوجدوا مجموعة صغيرة من الإيرانيين شعثي الشعر المتحمسين الذين لم يتعرفوا على معظمهم، ودفع هؤلاء الإيرانيين بلفافة إلى روزفلت فتحها بحذر شديد، فوجد داخلها الفرمانات الموقعة من قبل الشاه.

وبعد أن عانق روزفلت أصدقاءه الجدد فرحًا، فكر في سرعة التحرك على الفور، ولكنه استاء عندما أخبره العملاء أنه لا زال هناك سبب يدعو للتأخير، فالعطلة الأسبوعية التي تشمل يومي الخميس والجمعة في إيران على وشك البدء، ولم يكن الإيرانيون يحبون العمل أثناء العطلات الأسبوعية، فما بالك إذا كان هذا العمل يتمثل في إسقاط حكومة؟ وافق روزفلت على مضض أن يؤجل الانقلاب حتى مساء السبت الموافق الخامس عشر من أغسطس.

كان روزفلت ورفاقه واثقين من نجاح خطتهم، ولكنهم أيضًا كانوا مدركين أن كل ساعة تمر تزيد من احتمال وقوعهم فريسة للخيانة، وهكذا فقد قضوا ثلاثة أيام حول حمام السباحة وهم في معاناة شديدة، وكان يوم السبت هو الأصعب، وذلك لأن لحظة الحقيقة اقتربت جدًّا، وكتب روزفلت لاحقًا أن ذلك اليوم «كان أبطأ يوم مر عليهم من قبل.»

وفي ذلك الوقت كان روزفلت قد نقل مقره إلى قبو بمجمع السفارة الأمريكية، وقلت زيارات العملاء الإيرانيين له، ولكنهم كانوا منشغلين أكثر من ذي قبل في عملهم التخريبي كما يوضح أحد تقارير المخابرات المركزية الأمريكية حول الانقلاب:

> في الوقت ذاته بلغت الحرب النفسية ضد مصدق ذروتها، والصحافة التي وضعت تحت السيطرة تبذل أقصى ما في وسعها للوقوف في وجه مصدق، بينما [حذف] تحت إشراف المحطة كان يطبع مواد تراها المحطة مفيدة. وكان عملاء المخابرات المركزية الأمريكية

> ينتبهون لتحذير الزعماء الدينيين في طهران عن طريق نشر الدعاية السوداء باسم حزب تودة [الشيوعي]، مع تهديد هؤلاء الزعماء بالعقاب الشديد في حالة معارضتهم لمصدق، بالإضافة للمكالمات الهاتفية التهديدية باسم حزب تودة والقصف المزيف لمنازل هؤلاء الزعماء.
>
> وقد انتشر خبر دعم الشاه للعمليات المباشرة انتشار النار في الهشيم من خلال مؤامرة العقيد التي تدعمها المحطة. وقد رأى زاهدي العميل الرئيس للمحطة العقيد [حذف] وعينه في منصب ضابط الاتصال مع الأمريكيين، واختاره أيضًا كي يشرف على تخطيط الفريق للعملية ...
>
> وفي الرابع عشر من أغسطس أرسلت المحطة برقية تفيد بأنه عند الانتهاء من العملية TPAJAX سوف تكون خزانة الدولة الفارغة في حاجة إلى تمويل عاجل، واقترحت مبلغ ٥٠٠٠٠٠ (خمسمائة ألف دولار)، وطلبت من المخابرات المركزية الأمريكية توفير ذلك المبلغ خلال ساعات من انتهاء العملية.

وحسب ما ورد في تقرير المخابرات المركزية الأمريكية: «لم يكن هناك شيء يمكن للمقر فعله سوى انتظار بدء الأحداث.» وعند غروب شمس الخامس عشر من أغسطس على طهران استقل روزفلت سيارة الأجرة ورفع لافتة «تحت الطلب» وانطلق إلى منزل آمن قريب اجتمع فيه العملاء في انتظار أخبار النصر، وبينما كئوس الفودكا تدور أخذوا يغنون على ألحان عروض برودواي، ولحنهم المفضل «أيها الحظ فلتكن معنا الليلة» من المسرحية الموسيقية «الرجال والدمى»، وقد حرفوها لتصبح النشيد الرسمي لعملية أياكس.

عاد روزفلت إلى السفارة الأمريكية متأخرًا في ذلك المساء، ومر في طريقه على مقر الجنرال رياحي رئيس الأركان، سُرّ روزفلت بتلك المصادفة؛ فإذا نجحت خطته فسوف يصبح الجنرال رياحي في السجن خلال بضع ساعات.

كان العقيد نصيري الذي اختاره روزفلت كي ينفذ مهمة القبض على رئيس الوزراء في تلك الليلة هو الرجل المناسب لتلك العملية؛ فهو يؤمن

بأحقية السلطة الملكية في الصدارة ويكره مصدق، وقد أعطته قيادته للحرس الملكي المكون من سبعمائة رجل صلاحية التحكم في موارد كثيرة، وبحصوله على الفرمانات المهمة في وقت حرج تمكن من إثبات جدارته.

ولكن في ليلة الخامس عشر من أغسطس لم يكن نصيري يفكر كما ينبغي، فالساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلًا عندما وصل إلى منزل الجنرال رياحي ووجده خاليًا، ومع ذلك ظل مطمئنًا هادئ البال، وطلب من رجاله أن يتقدموا نحو منزل مصدق. ولم يكن يعلم أن قافلة عسكرية أخرى في طريقها إلى هناك، لقد علم الجنرال رياحي بالانقلاب وأرسل قوات لإفساده.

لم يعلم أحد قط هوية من أفشى ذلك الخبر، ولكن الشبهات تدور حول ضابط ينتمي إلى خلية شيوعية سرية، وربما اشترك أكثر من شخص في إفشاء الخبر. ولكن في نهاية الأمر، حدث ما كان روزفلت يخشاه؛ تسربت أنباء الخطة إلى أشخاص أكثر من اللازم على مدار فترات طويلة، وكان تسرب الخبر محتمًا.

وفي الساعات المربكة التي تلت منتصف الليل كانت طهران تجيش بالخطط والخطط المضادة، لقد علم بعض الضباط المتمردين بالخيانة في وقت مناسب فأوقفوا المهام المكلفين بها، وانطلق آخرون لتنفيذ مهامهم غير عالمين بالخطر المحدق بهم، واستولى أحدهم على مكتب الاتصالات في السوق، وأيقظ آخر وزير الخارجية حسين فاطمي من نومه وأخرجه إلى الشارع حافيًا صارخًا.

كان مستقبل الحكم الدستوري في إيران يعتمد على قافلة الجنود التي تتمكن من الوصول إلى منزل مصدق أولًا، وقبيل الواحدة صباحًا انطلقت القافلة المتمردة في شارع كاخ حتى تجاوزت ركن حشمت دولة ثم توقفت حيث كان مصدق يقيم مع زوجته في شقة صغيرة تعتبر جزءًا من مجمع سكني كبير امتلكته عائلته لفترة طويلة، كانت البوابة مغلقة، فتقدم العقيد نصيري كي يطلب الإذن بالدخول حاملًا في يده الفرمان الخاص بطرد مصدق من منصبه، وخلفه اصطف عدة طوابير من الجنود.

لقد وصل العقيد نصيري متأخرًا؛ فبعد وصوله إلى البوابة بلحظات ظهر العديد من القادة العسكريين المخلصين واقتادوه إلى سيارة من طراز

جيب إلى مقر قيادة الأركان العامة، وهناك اتهمه الجنرال رياحي بالخيانة وجرده من الزي العسكري وحبسه في زنزانة، وأصبح الرجل — الذي من المفترض أن يلقي القبض على مصدق — سجينًا.

لم يكن روزفلت يملك أي وسيلة يعلم بها ما حدث، كان جالسًا في مقر القيادة بالسفارة ينتظر مكالمة من العقيد نصيري، وتحركت الدبابات عدة مرات، لكن الهاتف لم يرن، ازدادت مخاوف روزفلت عمقًا مع بزوغ الفجر، فلم تبدأ إذاعة طهران إرسالها في السادسة صباحًا كالمعتاد، وبعد مرور ساعة دبت فيها الحياة فجأة وبدأت بإذاعة الموسيقى العسكرية، تلاها إعلان بيان رسمي. لم يكن روزفلت يتحدث الفارسية، لكنه توقع الأسوأ عندما سمع اسم مصدق، ثم ظهر مصدق نفسه على الهواء مباشرة معلنًا إخماد محاولة للانقلاب نظمها الشاه بالتعاون مع «عناصر أجنبية».

كان الشاه الذي انكمش مرتعدًا في فيلته المطلة على البحر يستمع هو أيضًا للبيان، وفور أن علم ما حدث أيقظ زوجته وأخبرها أن وقت الهرب قد حان، فأعدا في عجلة حقيبتين صغيرتين وأخذا ما تيسر حمله من الملابس وهرعا إلى طائرتهما ذات المحركين، كان الشاه طيارًا متمرسًا، فتولى القيادة وطار إلى بغداد، وعند وصوله هناك أخبر السفير الأمريكي أنه «سوف يبحث عن عمل قريبًا، حيث إنه يعول أسرة كبيرة ولا يملك سوى القليل من الموارد المالية خارج إيران.»

وأثناء هروب الشاه أخذت الوحدات العسكرية الموالية للحكومة تنتشر في كل أنحاء طهران، وسرعان ما عادت الحياة في المدينة إلى طبيعتها، حيث ألقي القبض على العديد من المتآمرين واختبأ البعض الآخر، ورصدت مكافأة للقبض على الجنرال زاهدي، واندفع عملاء المخابرات المركزية الأمريكية هاربين إلى السفارة الأمريكية أو المنازل الآمنة، وهللت الجماهير في الشوارع تنشد «النصر للأمة» و«انتصر مصدق».

داخل مقر السفارة شعر روزفلت بأنه «على حافة اليأس»، ولم يكن لديه خيار سوى إرسال برقية إلى واشنطن يخبرهم فيها بأن الأمور قد ساءت بشدة، وتلقى جون والر مدير مكتب إيران بالمخابرات المركزية الأمريكية تلك البرقية بإحباط شديد؛ كان والر قلقًا على حياة عملائه، فبعث إلى

روزفلت ردًّا عاجلًا، ولكن لا توجد نسخة من ذلك الرد محفوظة حتى الآن. وطبقًا للمعلومات المتداولة في المخابرات المركزية الأمريكية حملت البرقية أمرًا لروزفلت بمغادرة إيران في الحال، لكن والر أعلن بعدها بأعوام أن نص البرقية لم يكن حاسمًا إلى تلك الدرجة، حيث يتذكر أنه كتب فيها «إذا كنت في مأزق فاحضر كي تنجو بحياتك، وإن لم تكن في مأزق فاستمر في أداء واجبك.»

بدا الوضع كئيبًا للمتآمرين؛ فقدوا عنصر المفاجأة، وأصبح العديد من عملائهم الرئيسيين غير صالحين للعمل، واضطر رئيس وزرائهم المرشح إلى الاختباء، وفر الشاه هاربًا، وبعد أن قضى فاطمي وزير الخارجية عدة ساعات في سجن المتمردين خرج يلقي خطبًا نارية يتهم فيها الشاه بالتعاون مع العملاء الأجانب.

هتف فاطمي أمام حشد من الجماهير «أيها الخائن! في اللحظة التي سمعت فيها في إذاعة طهران أن مؤامرتك الأجنبية قد فشلت، لذت بالفرار إلى أقرب دولة توجد بها سفارة بريطانية.»

فشلت عملية أياكس، وأعلنت إذاعة طهران أن الموقف «تحت السيطرة»، وبالفعل بدا الأمر كذلك، وترددت أصداء الصدمة في مقر المخابرات المركزية الأمريكية بواشنطن.

ولكن فجأة عند منتصف المساء تقريبًا بعث روزفلت برقية غير متوقعة على الإطلاق؛ لقد قرر أن يمكث في طهران وأن يفكر في طعنة أخرى يوجهها لمصدق، لقد أرسلته المخابرات المركزية الأمريكية كي يطيح بالحكومة الإيرانية، وهو مصمم على ألا يرحل قبل أن ينفذ ما جاء من أجله.

الفصل الثاني

ملعون ذلك المصير

تشهد أطلال مدينة برسيبوليس[١] على عظمة بلاد فارس، حيث تطل شامخة مهيبة على صحراء جنوبي إيران، وتضيف الجبال المتباعدة المزيد إلى جلال ذلك المشهد، كانت تلك هي العاصمة الرسمية والروحية للإمبراطورية الشاسعة التي بناها قورش وداريوس وخشايار شاه، وهم الملوك العظام الذين لا تزال أصداء أسمائهم تتردد في التاريخ، وكانت التماثيل العملاقة للثيران المجنحة تحرس بوابة كل الأمم التي يمر أمراء الدول التابعة بها مرة كل عام كي يقدموا فروض الطاعة والولاء لسادتهم الفرس، وكان طول القاعة الكبرى ذات بهو الأعمدة — حيث كان الأمراء يمثلون أمام «سيدهم» بكل ما تحمله الكلمة من معنى — يماثل ثلاثة ملاعب كرة قدم، وكان سقفها مرفوعًا بواسطة ستة وثلاثين عمودًا شاهقًا لا يزال بعضها قائمًا حتى الآن، وهناك أيضًا سلمان أثريان يقودان إلى قاعة مزينة بنقوش بالغة الدقة تصور الطقوس السنوية للطاعة والولاء التي تؤدى يوم الاعتدال الربيعي، واليوم تعطينا تلك النقوش صورة واضحة عن مدى تحكم أباطرة الفرس ذات يوم في أكثر بلاد الأرض ثراء.

وتوضح النقوش حكام الدول التابعة وهم يسيرون في صف طويل أمام قائدهم الأعلى حاملين الهدايا التي تعبر عن ثراء بلادهم، وقد تمكن علماء الآثار من تحديد معظمهم، وذكر أسمائهم فقط يستدعي إلى الأذهان عظمة

[١] عاصمة الإمبراطورية الأخمينية (٥٥٠–٣٣٠ ق.م.)، وتبعد مسافة ٧٠ كم شمال شرق مدينة شيراز في محافظة فارس في إيران، وتعرف أيضًا باسم تخت جمشيد. (المترجمة)

العصور القديمة؛ هاهم العيلاميون[٢] المولعون بالحرب الذين عاشوا شرق نهر دجلة يقدمون أسدًا يرمز إلى شراستهم، ويقدم الأراكوسيون[٣] ساكنو وسط آسيا الجمال والفراء، ويقدم الأرمينيون فرسًا ومزهرية متقنة الصنع، ويقدم الحبشيون زرافة وناب فيل، ويقدم الصوماليون جلد ظبي مدبوغًا ومركبة حربية، ويقدم التراقيون[٤] الدروع والرماح، ويقدم الأيونيون[٥] ثيابًا من القماش وأطباقًا من الخزف، ويدخل العرب قائدين جملًا والآشوريون ثورًا والهنود حمارًا محملًا بالسلال المنسوجة. تقدم تلك الإتاوات إلى ملك الملوك، وهو العاهل الذي ساهم حكمه في بسط رقعة النفوذ الفارسي إلى أقصى أنحاء العالم.

تعتبر العديد من دول الشرق الأوسط كيانات مصطنعة رسم المستعمرون الأوروبيون حدودها في القرن التاسع عشر أو العشرين، فلم يراعوا التاريخ أو التقاليد المحلية، وكان لزامًا على قادتها أن يختلقوا الأساطير الخيالية كي يعطوا مواطنيهم شعورًا بالسيادة القومية. ولكن العكس هو الصحيح في حالة إيران، فهي إحدى أعرق الأمم في العالم، وهي تمتلك إرثًا من التاريخ يمتد إلى آلاف السنين عندما كان الفاتحون العظام يبسطون رقعة نفوذهم عبر القارات، الشعراء والفنانون يبدعون أعمالًا رائعة، وازدهرت هناك إحدى أعجب الحضارات الدينية في العالم. وحتى في العصر الحديث الذي تميز بفترات طويلة من الفوضى السياسية والقمع والمعاناة، لا يزال الإيرانيون مرتبطين عاطفيًّا بتراثهم.

يحفل التاريخ الإيراني بموضوعات مهمة عديدة لا تزال تساهم في تشكيل إيران حتى اليوم، ومنها المحاولات المضنية للتوفيق بين الإسلام — الذي

[٢] هم قوم ينتمون إلى القبائل الكوتية الكردية وهي أقوام آرية قادمة من جبال زاكروس التي كانت الموطن الأصلي لهم. وتعتبر حضارة عيلام من أقدم الحضارات البشرية، وهي تمتد من منطقة خرم آباد ونهر سيمرة إلى منطقة عيلام في إيران إلى مناطق الكوت وبغداد وخانقين وكركوك وبابل في العراق. (المترجمة)

[٣] نسبة إلى أراكوسيا وهي مدينة قندهار الحالية في أفغانستان. (المترجمة)

[٤] هم شعوب هندوأوروبية سكنت تراقيا والأراضي المجاورة (حاليًا بلغاريا ورومانيا وجمهورية مولدوفا وشمال شرق اليونان وتركيا الأوروبية وشمال غرب تركيا الآسيوية وشرق صربيا وأجزاء من جمهورية مقدونيا). (المترجمة)

[٥] هم مجموعة من اليونانيين القدماء عاشوا في أجزاء مختلفة من بيلوبنيسوس، أي شبه الجزيرة الجنوبي من اليونان، قبل عام ١١٠٠ ق.م.

فرضه على البلاد العرب الفاتحون — وبين التراث الخصب الخاص بفترة ما قبل الإسلام. ومن الموضوعات الأخرى التي يغذيها المذهب الشيعي الذي يعتنقه معظم الإيرانيين حتى الآن التعطش للقيادة العادلة التي لم ينعموا بها إلا قليلاً. ومن الموضوعات الأخرى أيضًا التي صقلتها المعتقدات الشيعية النظرة المأساوية للحياة التي تعتمد على مبدأ الاستشهاد والألم الجماعي. كانت إيران منذ عصور سحيقة هدفًا للغزاة الأجانب وضحية لموقعها الجغرافي الذي وضعها في مفترق أهم الطرق التجارية في العالم وفوق بحر من النفط، وقد ظلت تكافح كي تصل إلى طريقة للتعايش مع الدخلاء الأقوياء، وتضافرت كل تلك الضغوط في منتصف القرن العشرين كي تؤدي إلى ظهور شخص عظيم مثل مصدق ثم تدمره.

أخذ المهاجرون من وسط آسيا وشبه القارة الهندية يتوافدون على إيران منذ أربعة آلاف عام تقريبًا، مدفوعين بنقص الموارد وإغارة القبائل عليهم من الشمال والشرق، وكان من بينهم الآريون[٦] الذين استمدت منهم إيران اسمها الحالي، والإمبراطور الذي يرجع إليه الفضل في توحيد تلك الجماعات المهاجرة لأول مرة هو قورش، وهو أحد الشخصيات التاريخية ذات البصيرة الثاقبة وأول من تخيل قيام إمبراطورية في تلك المنطقة عرفت باسم فارس.

بعد وصوله إلى السلطة عام ٥٥٩ ق.م. أطلق قورش حملة عبقرية تهدف إلى إخضاع القادة الآخرين على الصعيد الإيراني لنفوذه، وتمكن من هزيمة بعضهم، واستمال البعض الآخر عن طريق الحيلة والإقناع، واليوم لا يذكره التاريخ بفضل غزواته فحسب، بل أيضًا بفضل المعاملة الحسنة التي كان يعامل بها رعاياه؛ فقد أدرك أن تلك الطريقة أكثر نجاحًا في بناء إمبراطورية قوية مقارنة باستخدام الوسائل الشائعة مثل الظلم والإرهاب وارتكاب المذابح.

[٦] تسمية أطلقت في القرن التاسع عشر على مجموعة من الشعوب الناطقة باللغات الهندوأوروبية، ولكن المصطلح يستخدم اليوم للدلالة على الفرع الشرقي، أي الهندي الإيراني من أسرة اللغات الهندوأوروبية، وبالتالي فهو مصطلح لغوي ولا يتضمن بالضرورة خصائص عرقية أو ثقافية محددة. ويعود أصل هذه الكلمة إلى اللفظة السنسكريتية arya التي تعني «النبلاء»، كما توجد أيضًا في اللغة الفارسية القديمة بصيغة مماثلة ariya بمعنى «السادة». (المترجمة)

عام ٥٤٧ ق.م. زحف قورش بجيوشه نحو آسيا الصغرى واستولى على سارديس عاصمة ليديا العظيمة، وبعد ذلك بسبعة أعوام تمكن من إخضاع القوة الإقليمية الأخرى، ألا وهي بابل. وخلال العقود التالية حقق هو وخلفاؤه مزيدًا من الانتصارات الكبرى، حيث استولى جيش مكون من مائة وثمانين ألف رجل بقيادة خشايار شاه على مقدونيا وترموبيل وأثينا، وكان ذلك هو الجيش الأضخم في أوروبا في ذلك الوقت. وقد بنت تلك السلالة المعروفة باسم الأخمينيين[٧] أعظم إمبراطورية في ذلك الزمان، وبحلول عام ٥٠٠ ق.م. كان الأخمينيون قد طوقوا شرق البحر المتوسط من ناحية اليونان مارين بتركيا ولبنان وإسرائيل ومصر وليبيا، وامتدت تلك الإمبراطورية شرقًا عبر القوقاز إلى ضفاف نهر السند، وأطلق عليها قورش اسم بلاد فارس لأنها برزت للوجود من القاعدة التي اتخذها في فارس.

كان التوجه السمح المتفهم الذي تميز به الأباطرة الأخمينيون يرجع جزئيًّا إلى ارتباطهم بالديانة الزرادشتية[٨] التي تؤمن بأن المسئولية المقدسة لكل إنسان تتمثل في العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية على الأرض، ويؤمن الزرادشتيون بأن الإنسانية كُتِبَ عليها الصراع الأبدي بين الخير والشر، ويقال إن الزرادشتية هي أول ديانة منزلة تبشر بالحساب بعد الموت وبخلود كل نفس في الجنة أو في الجحيم، وطبقًا لمعتقدات تلك الديانة يقرر الله مصير كل شخص وفقًا للفضائل التي كان يتمتع بها في حياته بناء على أفكاره وأقواله وأفعاله، وقد عاش النبي زرادشت في زمن ما بين القرن العاشر والسابع قبل الميلاد فيما يعرف الآن بشمالي شرقي إيران، وبدأ ممارسة الدعوة لعقيدته بعد سلسلة من الرؤى الإلهية، وقد أثرت الديانة الزرادشتية تأثيرًا عميقًا في التاريخ الفارسي، ولا يرجع ذلك إلى استخدام

---

[٧] هم أسرة ملكية فارسية كونت لها إمبراطورية في فارس عام ٥٥٩ ق.م. واستولت علي ليديا (غرب الأناضول) وبابل وإيران وفلسطين ومصر، وتعتبر فترة حكم هذه الإمبراطورية هي فترة الحضارة الفارسية.

[٨] ديانة أسّسها الحكيم الفارسي زرادشت ترى العالم كصراع مستمر بين القوى الكونية المستقلة. وفي معتقدات هذه الديانة فإن أهورامزدا هو رب الخير أو الحكمة وخالق العالم المادي، وأنجرامينو هو كل الموت وروح الشر، وأن الإنسان كائن حر وعليه واجب الانتصار لأهورامازدا، وقد انتشرت هذه الديانة في إيران خاصة بعد ثمانية قرون من وفاة زرادشت.

قورش لها في حملته الجريئة الناجحة لبناء إمبراطورية فحسب، بل أيضًا بسبب إيمان الكثيرين بها على مدار قرون عديدة.

تعلم الإيرانيون من الديانة الزرادشتية أن المواطنين يتمتعون بحق غير قابل للتنازل في وجود حاكم مستنير، وأن دور الرعايا لا يقتصر على طاعة الملوك الحكماء، بل يتعداه إلى الوقوف في وجه الطالحين منهم. ومع أن الحكام يعتبرون ممثلي الله على الأرض، فإنهم لا يستحقون الطاعة إلا إذا حصلوا على نوع من البركات الإلهية التي تكتسب بفضل السلوك الأخلاقي، وكي يحصلوا على تلك البركة ظل أجيال من قادة الفرس يزورون المعابد الزرادشتية حيث تشتعل النار المقدسة على الدوام مما يرمز إلى أهمية الاحتراز من المظالم.

ربط قورش وسلسلة الملوك الذين خلفوه بين أطراف الإمبراطورية الشاسعة باستخدام الطرق والكباري والعملة الموحدة ووضع نظام فعال للضرائب وإنشاء أول نظام خدمات بريدية بعيد المدى. ولكن في نهاية الأمر كان من المحتم أن ينقلب التاريخ عليهم، فقد بدأت الإمبراطورية تهتز بعد أن خسر داريوس معركة ماراثون الفاصلة عام ٤٩٠ ق.م. وجاءت الضربة القاضية من الإسكندر الذي زحف بجيوشه نحو بلاد فارس فاتحًا عام ٣٣٤ ق.م. مثيرًا عاصفة من الخراب، حيث أمر بنهب مدينة برسيبوليس وحرقها.

وعلى مدار القرون العشرة التالية، وخلال حكم ثلاث سلالات، حافظ الفرس على مشاعر قوية من الكبرياء والنبل، ومما تسبب في ازدهارهم قدرتهم على استيعاب تأثيرات عديدة من الدول المحيطة بهم، خاصة اليونان ومصر والهند، وإعادة تشكيلها في إطار العقيدة الزرادشتية. وفي القرن الثالث الميلادي بدءوا يعودون إلى قمة الهرم العالمي للقوة بمقياس أعاد للأذهان مجد الأباطرة الأوائل، حيث استولوا على أنطاكية وبيت المقدس والإسكندرية وأخذوا يناضلون للوصول إلى أسوار القسطنطينية. وقد تعرضت جيوش الفرس لهزيمة على يد البيزنطيين عام ٦٢٦م، ولكن الهزيمة الأفدح لم تأتِ بعد؛ فبعد بضعة أعوام تحرك جيش من شبه الجزيرة العربية القاحلة متجهًا نحو بلاد فارس، ولم يكن هؤلاء العرب مدججين بأسلحة الحرب التقليدية فحسب، بل كانوا أيضًا حاملين دينًا جديدًا، ألا وهو الإسلام.

كان الغزو على يد العرب — الذين كان الفرس المتحضرون يعتبرونهم همجًا — نقطة تحول فاصلة في تاريخ الأمة الفارسية، وقد تشابه مصير بلاد فارس مع إمبراطوريات عظمى عديدة، حيث أنهكت جيشها الغزوات الطويلة، وهوى قادتها مما أطلق عليه الكهنة الزرادشتيون عالم النور إلى عالم الظلام، وانفصل رجال الدين أنفسهم عن العامة، وعانى الناس الفقر المدقع حيث فرض البلاط الملكي عليهم ضرائب متزايدة بجشع شديد، وقضى الاستبداد على العقد الاجتماعي بين الحاكم والمحكوم الذي يعتبر في العقيدة الزرادشتية أساس الحياة المنظمة. ووفقًا للمعايير السياسية والدينية فقدَ الساسانيون — آخر الأسر التي حكمت قبل الإسلام في بلاد فارس — الحق في الحكم، وفرض قانون التاريخ الذي لا يرحم أن تهزم تلك البلاد على يد شعب نفوذه آخذ في الازدياد تقوده عاطفته المشبوبة نحو قادته والقضية التي يدافع عنها والمعتقد الذي يؤمن به.

ارتكزت قوة الساسانيين في مدينة قطسيفون — العاصمة الرائعة لبلاد ما بين النهرين، ولم تكن تلك المدينة تتميز بالأعمدة الفخمة مثل برسيبوليس، ولكنها كانت مدينة غارقة في الإسراف والتبذير؛ فقد ضم القصر الملكي مجموعات رائعة من المجوهرات، وكان يحرس القصر مجموعة تماثيل مجسمة من الذهب والفضة، وأهم ما يميزه قاعة الملك التي تشبه الكهف وتضم سجادة من الحرير تبلغ مساحتها تسعين قدمًا مربعًا مزينة بنقوش تمثل حديقة مزهرة وترمز بشكل مجازي إلى ثروة الإمبراطور وقوته، وخيطت في تلك السجادة أحجار كريمة مثل الياقوت واللؤلؤ والماس بخيوط من ذهب. وعندما دخل العرب مدينة قطسيفون فاتحين عام ٦٣٨م، نهبوا القصر الملكي وأرسلوا تلك السجادة الرائعة إلى مكة حيث أمر الحكام المسلمون بتمزيقها كي يظهروا احتقارهم للثروات الدنيوية، كما دمروا كنوزًا لا حصر لها بما فيها المكتبة الملكية بأكملها. ويروي الفردوسي — وهو شاعر فارسي عاش في القرن العاشر الميلادي — عن ذلك الغزو قائلًا إن أحد القادة تحسر قائلًا: «ملعون ذلك العالم ... ملعون ذلك الزمان ... ملعون ذلك المصير ... حيث أجبرني العرب الهمجيون على اعتناق الإسلام.»

وفي نفس الملحمة المسماة الشاهنامة — التي يبلغ طولها أربعة أضعاف الإلياذة — والتي استغرقت خمسة وثلاثين عامًا في تأليفها، يصف الفردوسي القائد الفارسي المنهزم رستم وهو يبكي المصاب الذي يراه قادمًا:

«لهفي عليك يا إيران! أين ذهب ملوكك العظام
الذين حكموا بالعدل والمساواة والجود
وزينوك بالأبهة والعظمة؟ رحلوا!
منذ ذلك اليوم الذي باع فيه العرب البدو الهمجيون
أميرتك في سوق النخاسة
لم تشرق عليك شمس يوم سارّ قط
وظللت قابعة في الظلام»

عند الفتح العربي لبلاد فارس كان الفرس قد اكتسبوا خبرة طويلة في استيعاب الثقافات الأجنبية، حيث كانوا يشكلون تلك الثقافات حسب هواهم أو يأخذون منها ما يرتضونه ويرفضون ما لا يناسبهم. وهكذا كان الأمر حين فرض عليهم الإسلام، فلم يكن لديهم خيار سوى قبول كون محمد رسول الله والقرآن كلام الله، ولكن على مدار قرون عديدة توصلوا إلى تفسير للإسلام يختلف عن ذلك الذي آمن به العرب الذين غزوا بلادهم، وقد بني هذا التأثير الذي يطلق عليه التشيع على قراءة مختلفة للتاريخ الإسلامي، ودل على طريقتهم البارعة في استخدام الإسلام لتعزيز المعتقدات الإيرانية القديمة.

يعتنق نحو ٩٠٪ من المسلمين الذين يبلغ عددهم مليار شخص في العالم اليوم المذهب السني، أما البقية فأغلبهم يعتنقون المذهب الشيعي، ويوجد أكبر عدد منهم في إيران، ويرجع الاختلاف بين هاتين الجماعتين إلى التفسيرات المختلفة لاستحقاق خلافة الرسول بعد وفاته عام ٦٣٢م، حيث يعتقد الشيعة أن الخليفة الشرعي هو علي ابن عمه الذي رباه منذ طفولته وزوجه إحدى بناته، وعلي أحد من أملى عليهم الرسول الوحي أو القرآن، بالإضافة إلى كونه عرض حياته للخطر ذات مرة بنومه في فراش الرسول كي يحبط خطة لاغتياله. ولكن بعد وفاة الرسول اختير شخص آخر لمنصب الخليفة، وهكذا

وجد علي نفسه في موقف المنشق، وانتقد المؤسسة الدينية لسعيها إلى امتلاك القوة الدنيوية وإضعاف ميراثها الروحي، وقد انضم الكثيرون إلى صفه سخطًا على الأوضاع الاقتصادية السيئة، وفي النهاية اتخذ الصراع شكلاً عنيفًا.

جرى تجاهل علي مرتين أخريين في الخلافة، فكرس نفسه للدعوة إلى التقوى والعدالة الاجتماعية، مما اجتذب إليه أتباعًا كثيرين خاصة بين الطبقات الدنيا، وفي نهاية الأمر تقلد منصب الخليفة عام ٦٥٦م، ولكن الصراع ازداد حدة، وبعد أقل من خمسة أعوام اغتيل وهو يصلي في مسجد بالكوفة، وهي حامية عراقية كانت موطنًا للصراع الديني، ووفقًا للروايات، كان علي يعلم أنه سوف يقتل في ذلك اليوم، ولكنه رفض الهرب لأنه «لا يمكن منع القدر المحتوم»، وعندما طعن صاح: «يا إلهي! كم أنا سعيد الحظ!»

انتقلت راية المقاومة إلى الحسين بن علي الذي قتل أيضًا وهو يقود اثنين وسبعين رجلًا في مواجهة جيش مكون من ألوف في ثورة انتحارية وقعت في كربلاء عام ٦٨٠م، وإصرارًا من السلطات على محو أثر الحسين أمرت بقتل معظم أفراد عائلته، ثم مرغ جسده في الطين وبترت رأسه وأرسلت إلى دمشق، حيث يعتقد الشيعة أنها ظلت ترتل القرآن والخليفة يضربها بالعصا. ويعتبر تناقل تلك الروايات وغيرها عن الحسين الملقب بـ«سيد الشهداء» هو ما يثير نوبات الانفعال لدى الشيعة في مدينة قم[٩] وغيرها من المدن الإيرانية المقدسة كل عام في ذكرى وفاته.

ساهم استشهاد الحسين دفاعًا عن قضية مقدسة في تشكيل النفسية الجماعية للإيرانيين، فإذا زرت مدينة قم أثناء مراسم الحداد التي تقام في ذكرى استشهاده، فسوف تجد نفسك محاطًا بفيض من المشاعر الحادة التي يصعب على الغرباء فهمها؛ تتحرك مواكب من الرجال والفتيان المتشحين بالسواد ببطء شديد كما لو كانوا فاقدي الوعي نحو بوابة الضريح الرئيس، وهم ينشدون مقاطع شعرية ترثي مصير الحسين، ويجلدون أنفسهم بالسياط حتى يسيل الدم من ظهورهم وأكتافهم، وفي المساجد يقص رجال

---

[٩] هي إحدى مدن إيران وتقع على بعد ١٥٧كم جنوب العاصمة طهران. (المترجمة)

الدين تلك الأحداث الأليمة بانفعال شديد لدرجة أن الجماهير تخر ساقطة وتنفجر في نوبات بكاء شديدة كما لو كانت تلك المأساة قد أصابتهم للتو. ويدل الصدق الشديد الذي يتميز به ذلك المشهد على نجاح الشيعة الإيرانيين في صياغة مجموعة من المعتقدات الدينية التي تندرج تحت الإسلام ولكنها في الوقت ذاته تحمل الطابع المحلي.

لا يعطي السنيون أهمية كبرى لمصرع علي والحسين بتلك الطريقة العنيفة، ولكن في رأي الشيعة الذين استمدوا اسمهم من تعبير «شيعة علي» أي «أتباع علي» يُعتبر هذان الحادثان كارثة كبرى، ويمثل علي والحسين لهم الروحانية الخاصة بالإسلام الصحيح وحياة التضحية بالذات التي يجب أن يحياها المسلم الحقيقي، ومن هذا المنطلق الذي ساهمت المعتقدات الزرادشتية في تشكيله، تمرد البطلان على مؤسسة أصبحت فاسدة وبالتالي فقدت عدالتها، وهكذا فقد ضحيا بنفسيهما على مذبح الشر كما يجب على المؤمنين الصادقين أن يفعلوا، ووضعا نموذجًا لا يزال يشكل الوعي الإيراني حتى اليوم؛ فقد تركا للشيعة تراثًا من الحماسة الدينية واستعدادًا وتلهفًا لنيل الشهادة على يد أعداء الله، ولا يزال علي يعتبر الشخص الأمثل والقائد الأعظم في التاريخ بعد الرسول، ولا يزال الشيعة يتدبرون خطبه ويحفظون عن ظهر قلب آلاف الحكم والأقوال المأثورة التي تفوه بها. ويجسد الحسين التضحية بالذات التي تعتبر القدر المحتوم لكل من يحب الإسلام والإنسانية بصدق، ويكتسب استشهاده أهمية عالمية أكثر من استشهاد والده، وذلك لأنه — أي الحسين — قتل على يد جنود الحاكم وليس على يد متطرف منفرد، ويعتبر إدراك عمق تلك العاطفة ضروريًّا لفهم مفاتيح إيران الحديثة.

يعتبر الشيعة الإيرانيون عليًّا أول الأئمة الاثني عشر، وهم الخلفاء الشرعيون للرسول، وكان الإمام الثاني عشر شابًّا عندما دخل في حالة غامضة، حيث انفصل عن العالم لكنه لا يزال يدرك المعاناة التي يمر بها، ويؤمن الإيرانيون بأنه لا يزال حيًّا، ويشيرون إليه باسم الإمام الثاني عشر أو الإمام المنتظر أو إمام الزمان، ويدعو الكثيرون الله كل يوم أن يعيده إلى الأرض، وعندما يعود سوف يصبح المهدي المنتظر أو المخلص الذي يعمل على تصحيح الأوضاع الخاطئة ويبدأ عهدًا جديدًا من العدالة المطلقة، وحتى

يحين ذلك الوقت يجب على الحكام الدنيويين أن يعملوا على محاكاة حكمته وصلاحه، وعندما يخفقون في ذلك فهم لا يتعدون على حقوق الإنسان فحسب، بل أيضًا على إرادة الله ذاتها.

كتب العلامة الطباطبائي المفكر الشيعي الكبير بالقرن العشرين: «إن الإمام يرعى الناس روحيًّا، وهو على صلة بأرواحهم وإن كان مختفيًا عن أعينهم، ويعتبر وجوده ضروريًّا على الدوام، حتى ولو لم يكن الوقت قد حان لظهوره المادي وللإصلاح العالمي الذي سوف يقوم به.»

إن السيطرة العميقة لذلك المعتقد على نفوس الشيعة الإيرانيين تجعل من مذهبهم أكثر من مجرد عقيدة دينية، بل ترفعه إلى مصاف ما أطلق عليه مايكل إم جيه فيشر المتخصص في علوم الإنسان «مأساة عقائدية». وهم يوقرون الرسول، لكن مشاعرهم ترتبط ارتباطًا أعمق بالحسين وعلي، وهو ما يطلق عليه فيشر «قصة يمكنها أن تشمل التاريخ وعلم الكون ومشاكل الحياة» تعززها «مأساة شعائرية أو مادية تجسد القصة وتحافظ على مستويات مرتفعة من الاستغلال العاطفي.» فقد جسد علي والحسين نموذجًا يخبرهم كيف يجب أن يحيا المؤمن الخلوق، بل أيضًا كيف يموت.

بعد أن لقي علي والحسين مصرعهما في القرن السابع الميلادي، وصلت الإمبراطورية العربية إلى ذروة مجدها ثم أخذت في الانحدار، وانصهر العرب الذين حكموا إيران تدريجيًّا في سكانها المختلطين، وحيث تراجعت قوة العرب ازداد الشيعة قوة، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أن تحذيراتهم من فساد السلالات الحاكمة أكدتها الفظائع التي ارتكبها السلاجقة[١٠] الأتراك الذين فتحوا البلاد ووحشية قبائل المغول بقيادة جنكيز خان الذين دمروا إيران بعد غزوها عام ١٢٢٠م، وعندما بدأ المغول يفقدون سطوتهم انتقلت السلطة إلى سلالة الصفويين الثورية التي تأثرت بالمذهب الشيعي، وكان إسماعيل قائد الصفويين شيعيًّا مناضلًا أرسل المقاتلين إلى أرض المعركة يهتفون «نحن رجال الحسين، وهذا زماننا! نحن أتباع الإمام المخلصين، الحماس اسمنا والشهادة عنواننا!»

[١٠] هي سلالة تركية حكمت في أفغانستان وإيران وأجزاء من الأناضول وسوريا والعراق والجزيرة العربية ما بين ١٠٣٨–١١٥٧م (ثم حتى ١١٩٤م).

وعقب سلسلة من الانتصارات بمساعدة الشيعة الذين احتشدوا إلى جواره من دول أخرى، أعلن اسماعيل تنصيب نفسه ملكًا عام ١٥٠١م. وأول قرار اتخذه بعد الجلوس على العرش إعلان الشيعية المذهب الرسمي للدولة، وهناك لوحة مصغرة شهيرة تصور ذلك المشهد وتحمل التعليق التالي «في يوم الجمعة ذهب جلالة الملك إلى مسجد تبريز وطلب من خطيب المسجد الذي كان أحد أعيان الشيعة أن يصعد المنبر، وتقدم الملك نفسه إلى المنبر واستل سيف سيد الأزمان من غمده ووقف كالشمس المشرقة.»

لم تكن تلك مجرد خطوة دينية بسيطة، ولكنها أهم خطوة في إنشاء الأمة الإيرانية؛ فقد استخدم إسماعيل المذهب الشيعي لمساعدته في بناء إمبراطورية امتدت خلال عشرة أعوام من تتويجه خارج حدود إيران الحالية كي تشمل المنطقة من وسط آسيا إلى بغداد ومن جبال القوقاز المكسوة بالثلج إلى شواطئ الخليج العربي. وأثناء حكم اسماعيل ظهرت ملامح إيران الحالية السياسية والروحية، فالإيرانيون تجمعهم بالفعل روابط الجغرافيا المتغيرة واللغة والذاكرة الجمعية للمجد التليد، ولكن أيًّا من تلك الروابط لم يثر التوهج الذي أثاره التشيع، فباعتناق الإيرانيين تلك العقيدة تقبلوا الإسلام ولكن ليس بنفس الطريقة التي أرادها العرب الفاتحون الذين كانوا يعتنقون المذهب السني، وهكذا تمردوا وهم يظهرون الاستسلام.

وأهم ما في الأمر أن الإيرانيين وجدوا أخيرًا نظامًا يمنحهم الحرية من سلطة الدولة، على الأقل من الجانب الروحي، وقد تخيل إسماعيل والقادة الصفويون الذين تلوه أن باستطاعتهم التحكم في التشيع، وبالفعل تمكنوا من ذلك على مدار القرنين التاليين، ولكن الاعتقاد بأن الحكام لا يستحقون السلطة إلا عندما يقيمون العدل جزء لا يتجزأ من المعتقدات الشيعية كما هو جزء من المعتقدات الزرادشتية، وفي نهاية الأمر أعطى هذا المعتقد للجماهير الشيعية القوة السياسية والوجدانية اللازمة للقضاء على الأنظمة الدنيوية، وبالتالي فقد اكتسب الزعماء الدينيون تلك القوة.

عندما تقلد اسماعيل مقاليد الحكم كان الإيرانيون قد وصلوا بالفعل إلى قمم ثقافية عظيمة، ومنذ القرن التاسع الميلادي والمفكرون الإيرانيون يجوبون العالم الإسلامي بحثًا عن أعظم الفلاسفة والعلماء، وشرعوا في

ترجمة أعمال أفلاطون وأرسطو وأرشميدس وإقليدس وبطليموس والعديد من المفكرين الإغريق ودراستها. وقد حقق الصناع المهرة طفرات هائلة في العمارة وفنون الخزف، وأنشأ رسامو المنمنمات الفارسيون أساليب مقلدة ولكن لم تضاهها أعمال الخبراء من القسطنطينية إلى صحراوات آسيا الوسطى، وعكف الشعراء الموهوبون على تأليف أشعار عامرة بالوجد والعاطفة، ولا تزال تلك الأشعار تقرأ في جميع أنحاء العالم، ويرفض العديد منهم — مثل جلال الدين الرومي الشاعر الصوفي الذي عاش في القرن الثالث عشر الميلادي — المعتقدات التقليدية من أي نوع، حيث يقول:

«أيها المسلمون ما التدبير، وأنا نفسي لا أعرف نفسي
فلا أنا مسيحي، ولا أنا يهودي، ولا أنا مجوسي ولا أنا مسلم
ولا أنا شرقي ولا أنا غربي، ولا أنا بري ولا أنا بحري
ولا أنا من عناصر الأرض والطبيعة، ولا أنا من الأفلاك والسموات
ولا أنا من التراب ولا أنا من الماء، ولا أنا من الهواء ولا أنا من النار.
ولا بهذا الكون ولا ذلك،
ولا في الجنة ولا النار موطني
ولا طردت من عدن ولا يزدان،
ولا من آدم أخذت نسبتي
بل مقام ما أبعده من مقام،
وطريق خفي المعالم
تجردت عن بدني وروحي،
فمن جديد أحيا في روح محبوبي»[١١]

كانت تلك الإنجازات الثقافية مؤشرًا على قدرة الإيرانيين على دخول العصر الحديث واثقين بقوتهم الإبداعية والعسكرية والروحية عندما تمكنوا في نهاية المطاف من تحقيق الوحدة السياسية، ولا يزال عباس شاه الملك الصفوي الذي أعطاهم الإلهام لأعظم إنجازاتهم بطلًا في إيران، وقد جلس

[١١] الأبيات بتصرف.

على العرش لفترة تزيد عن أربعين عامًا، من عام ١٥٨٨ إلى عام ١٦٢٩، ونجاحه في توحيد شعبه وإعطائه شعورًا بالمصير المشترك على نفس مستوى نجاح معاصريه الملكة إليزابيث الأولى في بريطانيا والملك فيليب الثاني في أسبانيا. وقد شق الطرق التي اجتذبت التجار الأوروبيين إلى المدن الإيرانية، وأنشأ مصانع لإنتاج الحرير والفخار والمنتجات الأخرى التي كان التجار يرغبون في شرائها، وتولت الدواوين الحكومية جمع الضرائب وتطبيق العدالة وتنظيم الحياة كما لم تنتظم منذ عهد قورش وداريوس الذي انقضى منذ ألفي عام.

كان عباس نموذجًا تقليديًّا ملائمًا للحكام الإيرانيين، ليس من أجل تفانيه في جلب أفضل ما في العالم إلى مملكته فحسب، بل أيضًا لأنه فرض الاستبداد ولم يتحمل أي نقد موجه للطغيان الذي مارسه، وكان التعذيب والإعدام شيئًا عاديًّا أثناء فترة حكمه، ولمدة أعوام عديدة حبس أبناءه في القصر الملكي حيث أتاح لهم التمتع بالمحظيات، ولكنه حرمهم من التعليم والتدريب الذي يؤهلهم للقيادة في المستقبل، كان عباس يخشى الثورة ضد حكمه، وقد أمر بقتل ابنه البكر وسمل عيني ابنيه الآخرين وشقيقيه ووالده.

كان أعظم تراث مادي تركه عباس للأجيال القادمة العاصمة المتألقة أصفهان التي جعل منها إحدى أعظم المدن في العالم، ولا تزال قبابها الشامخة وقصورها الملكية المصممة تصميمًا معقدًا وقاعات الصلاة المكسوة بالقرميد تثير الهيبة في نفوس الزائرين وتبرر اعتقاد الإيرانيين لأجيال عديدة بأن أصفهان هي نصف العالم. وقد أمر عباس بإحضار صناع أرمينيين يساعدون في بناء المدينة، وتجار هولنديين يساهمون في بسط رقعة السوق الكبير، ودبلوماسيين من كل أنحاء العالم كي يعطوا المدينة طابعًا عالميًّا. وكان تعداد أصفهان يبلغ نصف مليون نسمة، ولم تكن تضاهيها أي مدينة في العالم في عظمتها، ولكنها لا تمثل تألق إيران فحسب، بل أيضًا الجوانب المظلمة لحكم عباس شاه.

كتب أحد المؤلفين المعاصرين: «لم تكن كل أشكال الفنون تهدف إلى الإمتاع فحسب، بل كانت تعززها قوة الملك وسلطانه، من الزخرفة الخزفية للمساجد إلى البحيرات وأحواض الزهور حول الأجنحة الملكية. وهكذا يمكننا

تفهم المزيج الغريب من القسوة والليبرالية، من الهمجية والرقي، من العظمة والدونية الذي ساهم في تشكيل الحضارة الفارسية.»

ونظرًا للوحشية التي تعامل بها عباس شاه مع ورثة عرشه، كان من الطبيعي أن تمر إيران بحالة من الفوضى بعد وفاته، فقد بدأ جيرانها يطمعون فيها، وعام ١٧٢٢ اجتاحتها القبائل الأفغانية التي نهبت مدينة أصفهان نفسها، وفي نهاية الأمر طرد الأفغانيون على يد نادر شاه، وهو آخر القادة العظام في تاريخ إيران، وكان تركيًّا سنيًّا زحف بجيوشه على مدينة دلهي، وكان أحد الكنوز التي نهبها من مدينة دلهي عرش الطاووس المطعم بالمجوهرات الذي أصبح رمزًا للملكية الإيرانية لاحقًا. بعد اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧ بدأت سلسلة من الصراعات على السلطة استمرت ما يقرب من خمسين عامًا وانتهت بوصول القاجاريين إلى الحكم.

تولى القاجاريون — وهم قبيلة تركية تقطن بالقرب من بحر قزوين — حكم إيران منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى عام ١٩٢٥، ويتحمل ملوكها الفاسدون ضيقو الأفق مسئولية الفقر والتخلف في البلاد. وبينما كانت معظم أنحاء العالم تتقدم نحو الحداثة، ظلت إيران راكدة في ظل حكم القاجاريين.

كتب اللورد كيرزون السياسي البريطاني في أواخر فترة حكم القاجاريين: «في دولة كهذه تعاني التخلف الدستوري وتفتقر إلى القوانين والمواثيق وتعتبر محبوسة في قالب تقاليد الشرق العتيقة، فإن العامل الشخصي يكتسب سطوة كبرى كما هو متوقع. وليست حكومة إيران إلا مجموعة من الممارسات التعسفية للسلطة بواسطة مجموعة من الوحدات على نطاق متدرج نزولاً من الملك إلى زعماء القرى الحقيرة.»

لو حكم إيران في القرن التاسع عشر نظام قوي متطور، فربما تمكنت من صد القوى الأجنبية التي طمعت فيها، لكن الضغوط كانت ستشتد عليها على أي حال، فقد تميزت إيران بموقع جغرافي يقع في الطريق بين القوتين العظميين في العالم آنذاك، وهما بريطانيا وروسيا. وقد رأت بريطانيا في إيران أمة تحتل طريقها البري إلى الهند، وهي أهم مستعمراتها وأكثرها ثراء، ورأت روسيا فيها فرصة للتحكم في رقعة كبيرة من الأرض تقع متاخمة لحدودها الجنوبية المكشوفة. وكان ملوك إيران شديدي الضعف والانشغال

بأنفسهم، مما جعل الإغراء لا يقاوم بالنسبة لكلا الإمبراطوريتين، فاندفعت كلتاهما في محاولة لملء فراغ القوة الذي خلفه القاجاريون الجهلاء.

لم يبدُ على الملوك القاجاريين الاستياء وهم يرون إيران تنزلق في هاوية العبودية، وعلى فرض أنهم شعروا بالاستياء فقد صمموا على الاستفادة إلى أقصى حد ممكن مما اعتبروه قدرًا محتومًا، لكن تقديرهم للأمور كان خاطئًا، فقد افترضوا أن الشعب الإيراني سوف يتقبل ما يمليه عليه قادته، ولكن نظرًا لفسادهم واستعدادهم لترك إيران فريسة لسيطرة القوى الأجنبية، وقع الشقاق بين القاجاريين وبين الشعب، وهكذا فقدوا حقهم في الحكم. ثار الإيرانيون كما لم يثوروا من قبل، حيث كانوا مسلحين بالمبادئ الشيعية التي تمنح المواطن العادي سلطة الإطاحة بالطغيان والاستبداد، بالإضافة إلى قيم العالم الجديد الناشئ، وكانت مطالبهم مثيرة للدهشة بقدر ما كانت ثورتهم ذاتها، حيث كانت تتمثل في إنهاء سيطرة القوى الخارجية على البلاد وإنشاء برلمان للتعبير عن إرادة الشعب، كان ذلك أكثر البرامج التي اعتنقها الإيرانيون ثورية، وهو البرنامج الذي سوف يؤدي إلى الإطاحة بسلالة القاجاريين وتشكيل تاريخ إيران فيما بعد.